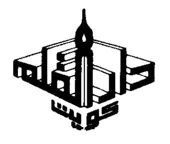
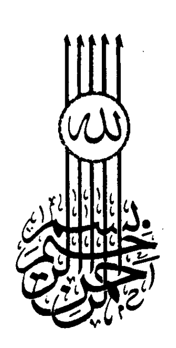
الملة والنحلة

في

اليهودية • المسيحية • الإسلام

الدكتور حمدي عبد العال
كلية الشريعة - جامعة الكويت



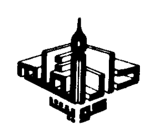


الملة والنحلة

في

اليهودية • المسيحية • الإسلام

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الناس تسيرهم معتقداتهم أكثر مما تسيرهم أفكارهم . من هنا فستظل الأديان بيدها زمام حركة التاريخ الإنسانى والصراع البشرى ، وتبقى صناعة الكلام والحوار والجدل فى الأديان مادام للإنسان وجود على الأرض .

وعلى العلماء فى هذه الصناعة الذين يتميزون بفكر ينشد الحق والحقيقة وإرادة تنشد الخير والسعادة للإنسان ، بيان الحقيقة من الوهم والصواب من الخطأ فيما يدين به البشر من معتقدات وآراء . فنجاة الإنسان وفوزه منوط بتجردهم من الهوى وإخلاص نياتهم فى هداية الإنسان إلى الحق والخير .

وأدعو الله مخلصاً أن يكون باعثى وقصدى فيما كتبت ، الإسهام فى تحقيق هذه الغاية التى هى غاية كل دين صحيح .

المؤلف

تمهيـــد

نود قبل عرض موضوع دراستنا تفصيلاً ، أن نذكر بعض الأمور التى نجد أنها تعين على توضيح موضوع البحث :

أولاً : معنى الملل والنحل

الملل : جمع ملة : والمِلَة بكسر الميم معناها الدين .

والنحل : جمع نحلة ، والنحلة بكسر النون معناها الدعوى ، تقول انتحل فلان الشئ بمعنى إدعاه لنفسه .

ثانياً : موضوع البحث ومنهجه

وموضوع بحثنا ، خاص بالأديان السماوية الكبرى التى أطلق عليها اصطلاحاً للتمييز بينها : اليهودية ، والمسيحية والإسلام بقصد التميز فيها بين كلمة الله كما عبر عنها الوحى ، وبين كلمة الإنسان التى ادعى أنها من الوحى أو تعبير عن الوحى ، أى بين الملة كدين من الله والنحلة كدعوى من البشر .

ومنهجنا فى دراستها سيكون على أساس تاريخى مقارن ، لأنه لما كان موقف أى جماعة من عقيدة اعتقدتها كما يقول الدكتور البهى : « يتمثل فى مظهرين :
مظهر الإيمان القوى ،
ثم مظهر التفهم والتعقل .

وكلما خفت حرارة الإيمان فى القلوب .. كلما برزت ناحية الاختلاف فى فهمها »[1] .

---

(١) الجانب الإلهى فى التفكير الإسلامى ، ص ٥٤ ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ .

فإن المظهر الأول بالنسبة لنا ، يمثل الأديان الثلاثة فى صورتها التى نزل بها الوحى .

أما المظهر الثانى ، فيمثل عندنا الآراء والمذاهب التى انتحلها أتباع كل دين من الأديان الثلاثة معتمدين فيما ذهبوا إليه على التأويل العقلى والفهم الشخصى لنصوصهم الدينية .

ونحن بصدد الإسلام . نستطيع فى سهولة ويسر تمييز الملة أو الدين فيه عن النحلة أو الدعوى ، حيث إن نصوصه الدينية وأهمها القرآن شاهد صدق على الأمرين معاً ، أعنى الإسلام كما نزل به الوحى ، والإسلام كما فهمه أتباعه ، مما يمكننا من كشف أو نقد الدعاوى التى إدعاها المؤمنون به ومقدار بعدها أو قربها من الوحى .

أما بالنسبة لليهودية والمسيحية ! فالأمر جد مختلف ، حيث إنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل ، تمييز الدين فيها من النحلة ، لما ثبت علمياً من تحريف كتبها المقدسة فلا يمكن فى مجال التوثيق العلمى الدقيق الإعتماد على تلك الكتب فى تمييز الدين كما نزل به الوحى عن الدعاوى التى أضافها البشر فى اليهودية أو المسيحية بوضعهما الراهن .

ومن هنا اعتمدنا على القرآن كلما أمكن ذلك كمعيار نقد وتمييز بالنسبة لليهودية والمسيحية ، وموقفنا هذا ليس صادراً عن تعصب ، وإنما عن باعث علمى بحت ، حيث إن القرآن قد تعرض للنقد العلمى متناً وسنداً من أشد المتعصبين ضده ، كما لم يستطع أحد النيل من صدقه وسلامته فى كل القضايا التى طرحها ومنها ما يتصل بالأديان الأخرى . فنحن ، من منطلق علمى بحت ، فى حاجة إلى الاعتماد عليه ، ليس فى مجال نقد وثائق تلك الأديان واستبيان ما حدث فيها من ثغرات فحسب ، وإنما لإثبات وجودها التاريخى نفسه ، وإلا لأصبح من السهل علمياً التشكيك فى نسبها السماوى أصلاً وسقوط رداء القداسة عن وثائقها ورموزها . فالأناجيل مثلاً من الناحية العلمية ، لا تستطيع وحدها اثبات وجود عيسى عليه السلام ، بل انها لتكتسب شرعيتها والاعتراف بها من اثبات وجود عيسى عليه السلام من طرق وأدلة أخرى ، فتصفح الأناجيل كما يقول شارل جنيبر : « يكفى لاقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يحتم القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم ، بل على العكس

من ذلك اتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه .. وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز فى وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته فى دقة »(٢) والأمر فى ذلك لا يختلف بالنسبة لليهودية ، كلاهما اذن محتاج إلى القرآن الذى يمنحهما الإعتراف بنسبهما ، أما الاعتماد على وثائقهما الذاتية وحدها فإنه لا يكون إلا مجازفة بمصيرهما وشرعية نسبهما .

ثالثاً : منشأ التسمية

ونعنى بذلك الإجابة على هذا السؤال : هل تسمية الأديان الثلاثة أصلها بشرى أو إلهى ؟

لنعلم أولاً ، أن الأديان الصحيحة المنزلة على الرسل من الله تعالى لهداية البشر إلى الصراط المستقيم ، واحدة فى أصولها ، واحدة فى مصدرها وهو الله سبحانه وتعالى ، وهى كلها تعنى الخضوع والانقياد التام قلبياً وعقلياً وجسمانياً لكل ما أمر به الله عن طريق رسله ، هذا الموقف عبر عنه الوحى أو سماه الله تسمية واحدة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(٣)

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(٤)

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(٥)

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾(٦)

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٧)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٨)

---

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ، ص ٢٨ - ٢٩ ، ترجمة عبدالحليم محمود ، المكتبة العصرية ، بيروت .

(٣) آل عمران : ١٩ . (٥) المائدة : ٣ . (٧) غافر : ٦٦ .

(٤) آل عمران : ٨٥ . (٦) الأنعام : ١٢٥ . (٨) فصلت : ٣٣ .

الوحى إذن هو الذى سمى الدين الصحيح بالإسلام ، وهو الدين الذى كلف به كل الأنبياء وأمروا بتبليغه إلى الناس .

فعن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام يقول القرآن :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾[9]

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾[10]

والإسلام هو الدين الذى أوصى به إبراهيم بنيه :

فمع ابنه إسماعيل عليه السلام يدعو :

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[11]

كذلك :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[12]

ثم هو وصية يعقوب لبنيه من بعده :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ

(٩) آل عمران : ٦٧ .
(١٠) البقرة : ١٣٠ - ١٣١ .
(١١) البقرة : ١٢ .
(١٢) البقرة : ١٣٢ .

﴿ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (13)

ثم هو دين موسى الذى كلف بتبليغه إلى بنى إسرائيل :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (14)

وفرعون موسى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (15)

ولم يقل أنا من اليهود أو من الإسرائيليين ، لعلمه أن الدين الذى يدعو إليه موسى عليه السلام إسمه الإسلام .

والإسلام هو الدين الذى دعا إليه سليمان عليه السلام أهل سبأ حين قال لهم :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (16)

وهو دين عيسى عليه السلام الذى :

﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (17)

---

(13) البقرة : ١٣٣ .
(14) يونس : ٨٤ .
(15) يونس : ٩٠ .
(16) النمل : ٣١ .
(17) آل عمران : ٥٢ .

وأخيراً هو الرسالة الشاملة التى كلف بها محمد ﷺ وأمر بتبليغها إلى الناس كافة : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(١٨)

من كل هذا يتبين أن تسمية الدين الصحيح بالإسلام تسمية إلهية وليست بشرية .

وأن الإسلام هو الدين الذى كلف به الرسل جميعاً منذ آدم وحتى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وإن كان يختلف من حيث العموم والخصوص ، فقد كان دعوة خاصة بزمان ومكان وشعب معين عند الرسل السابقين ، وإنتهى إلى دعوة عامة شاملة للناس جميعاً على يد محمد صلى الله عليه خاتم الأنبياء والرسل .

أما اليهودية أو المسيحية ، فهى تسمية من وضع البشر ، منشأها النسب الشخصى .

ولهذا نجد القرآن الكريم تارة يذكرهما فى مجال المدح عند إيمانهم ، وتارة فى مجال الذم عند كفرهم ، أى أنه وصفهما بالكفر والإيمان .

ففى معرض المدح مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾(١٩)

---

(١٨) آل عمران : ٨٤ - ٨٥ .

(١٩) البقرة : ٦٢ .

أما فى معرض الذم ففى مثل قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[٢٠]

أما الإسلام فيذكره فى مجال المدح فقط لأن المقابل له هو الكفر أو الشرك .

نخرج من هذا إلى أن اليهودية والمسيحية التى تسمى أيضاً النصرانية ، تسمية وضعية تطلق على أتباع موسى وعيسى عليهما السلام ، وهى لا تعني بالضرورة التزامهم بالدين الصحيح الذى نزل على موسى أو عيسى والذى سماه الله بالإسلام .

---

(٢٠) التوبة : ٣٠ - ٣١ .





الفصل الأول

اليهودية



نشأتها وتطورها

اليهود . هم أتباع موسى عليه السلام ، وكتابهم التوراة ، ويطلق عليهم بالإضافة إلى ذلك بنى إسرائيل والعبرانيين ، وكلها تسميات وضعية كما قلنا اختلف فى منشأها :

« **اليهودية** » :

وقد دارت حول منشأها اجتهادات كثيرة أهمها :

١ – الشهرستانى الذى يقول بالاشتقاق اللغوى يقول : « هاد الرجل أى رجع وتاب ، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام . [إنا هدنا إليك] أى رجعنا وتضرعنا »(١) .

والواقع أن هذه التسمية من هذا الاشتقاق تنطبق إلى حد كبير على سيرة اليهود ، فالمرء حين يتصفح أسفارهم الدينية يندهش من سرعة تمردهم وعصيانهم لأنبيائهم إلى حد قتلهم ، ثم توبتهم ، ثم تمردهم ، ثم توبتهم ، ويكفى أن تذكر التوراة أنهم ارتدوا ثمانية مرات منذ خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام وحتى دخولهم فلسطين على يد شاول ، وهى مدة لا تزيد عن مائة وخمسين عاماً ، وكان كثير من تلك المرات التى ارتدوا فيها فى حياة موسى عليه السلام نفسه .

وهكذا سلسلة متصلة من العصيان والتوبة ، وهذا الأمر يعتبر ظاهرة نفسية تحكم سلوك اليهود على امتداد تاريخهم الدينى كله ، والقرآن الكريم متفق مع كتبهم المقدسة فى إبراز هذه الظاهرة .

---

(١) الملل والنحل : ١٩٢/١ – تخريج محمد فتح الله بدران ط ٢ مكتبة الأنجلو العربية القاهرة ١٩٥٦ .

٢ - ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن اليهودية نسبة إلى « يهوذا » أحد أبناء يعقوب عليه السلام ، ويرجح هذا الرأى أن سبط يهوذا كان له شأن كبير فى تاريخ اليهود وهو الذى أسس أقوى دولة لهم فى فلسطين .

٣ - ويرى فريق آخر أنها تسمية متأخرة ، سماهم بها الفرس حين احتلوا فلسطين فى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً ، وأطلقوا على عقيدتهم اليهودية ، تمييزاً لهم عن غيرهم من الشعوب الأخرى ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت كلمة اليهود تعنى من اعتنق اليهودية ولو لم يكن من بنى إسرائيل[٢] .

« بنى إسرائيل »

وهو اللقب الذى أطلقه القرآن وكذلك التوراة كثيراً على اليهود ، كما أنه اللقب الذى يعتز به الإسرائيليون كثيراً ، لأنه اللقب الذى به يؤكدون أو يبرزون به نسبهم بإبراهيم عليه السلام ، والنسب من الأمور التى يهتم بها الإسرائيليون غاية الاهتمام ، ويحرصون على إبرازها ، ويقصدون بها التأكيد على أصالة نسبهم وعراقة أصولهم ، بهدف ترسيخ فكرة أنهم شعب الله المختار ، ولهذا نجد أسفارهم الدينية مغرمة بذكر أنسابهم تفصيلاً ولا تمل تكرارها ، فتذكر التوراة أن إبراهيم عليه السلام اتخذ زوجة تدعى « سارة » ولدت له إسحاق عليه السلام ، وأمة تدعى « هاجر » المصرية ، ولدت له إسماعيل عليه السلام ، أما إسحق عليه السلام فقد تزوج إمرأة تدعى « رفقة » التى أنجبت له توأمين : الأول منهما كان كثيف الشعر فسموه عيسو وأصبح بكر أبيه ، وبعده خرج الثانى ويده قابضة بعقب عيسو فدعوه يعقوب ، وهو المسمى إسرائيل ، ومن هنا سمى أبناؤه بنى إسرائيل .

وبه يبدأ التاريخ الحقيقى لبنى إسرائيل ، ومن العجيب أن يبدأ هذا التاريخ بالمكر والخديعة ، فالتوراة وهى تذكر هذه البداية وكأنها تريد أن تقرر مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » كقيمة أخلاقية ، وإليكم ما تقوله التوراة لتتبينوا هذا بأنفسكم .

تقول التوراة « سفر التكوين » [٢٧/١ - ٣٦] :

« وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا ابنى . فقال له هأنذا ، فقال اننى قد شخت ولست أعرف

(٢) انظر مقارنة الأديان - اليهودية : ص ٨٨ - أحمد شلبى ط ٤ مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٧٤ .

يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً . واصنع لى أطعمة كما أحب وأتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه . فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيداً ليأتى به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : إئتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى ، فالآن يا ابنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى . فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس – ربما يجسنى أبي فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة . فقالت له أمه لعنتك عليّ يا ابنى ، اسمع لقولى فقط واذهب خذ لى فذهب وأخذ وأحضر لأمه ، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو إبنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملامسة عنقه جلدى المعزى ، وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال يا أبى : فقال هأنذا ، من أنت يا ابنى . فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتنى ، قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك – فقال إسحق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى فقال إن الرب إلهك قد يسر لى . فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسك يا ابنى أأنت هو ابنى عيسو أم لا . فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه ، فجسه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه ، فباركه ، وقال هل أنت هو ابنى عيسو ، فقال أنا هو . فقال قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم به فأكل . وأحضر له خمراً فشرب . فقال له إسحق أبوه تقدم وقبلنى يا ابنى فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه ، وقال انظر . رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب ، فليعطك الله من ندى السماء ، ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمر ، ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك ، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين .

وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك فقال له إسحق أبوه من أنت . فقال أنا ابنك بكرك عيسو . فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جدا . وقال فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به إلى فأكلت من الكل قبل أن تجئ وباركته ، نعم ويكون مباركاً ، فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرّة جداً . وقال لأبيه باركنى أنا أيضاً يا أبى . فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال ألا إن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبنى الآن مرتين ، أخذ بكوريتى وهو ذا الآن قد أخذ بركتى » .

ولا يخفى ما فى هذا النص من دلالة على المعايير التى تحكم سلوك بنى اسرائيل إن فى علاقتهم الداخلية أو الخارجية ، والتى تشكل تكوينهم النفسى والأخلاق حتى الآن .

ثم تزوج يعقوب عليه السلام بنتى خاله :

لئية ، وولدت له : رأوبين ، وشمعون ، ولاوى (الذى من نسله موسى وهارون عليهما السلام) ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون .

راحيل : وولدت له : يوسف ، وبنيامين .
ثم كان له أمة تدعى زلفة ، ولدت له : جاد ، وأشير .
ومن جارية أخرى تدعى بلهة أنجب منها : دان ، ونفتالى .

وبهذا كان ليعقوب اثنا عشر ولداً ، وهم رؤوس الأسباط الذين دخلوا مصر مع أبيهم يعقوب عليه السلام فى القرن السادس عشر قبل الميلاد تقريباً حين استقدمهم يوسف عليه السلام ، وقد وردت قصتهم كاملة فى سورة يوسف ، وهى لا تختلف كثيراً عما قالته التوراة – سفر التكوين .

والرسم التوضيحى فى الصفحة التالية يبين شجرة نسب بنى إسرائيل حتى موسى عليه السلام .

« **العبرانيين** »

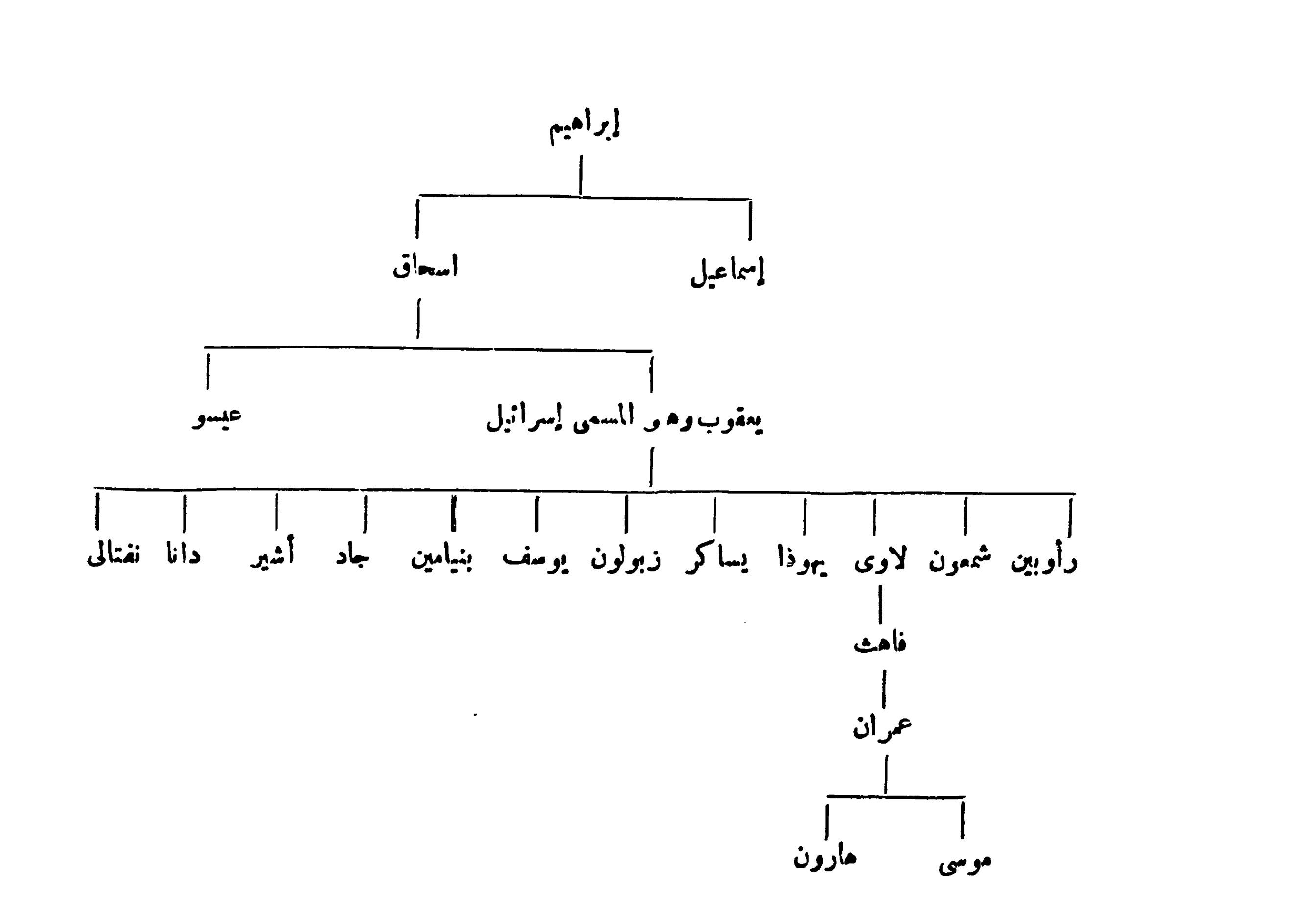
وهناك اتفاق عام على أنه يطلق على من انحدر من ذرية إبراهيم عليه السلام ولكن الخلاف فى معناها واشتقاقها :

١ – عبرى مشتقة من الفعل « عبر » ومعناه فى العبرية كما فى العربية ، قطع مرحلة من الطريق أو الوادى ، وقد أطلق على إبراهيم عليه السلام ، لعبوره النهر والصحراء فراراً من قومه .

٢ – أو أنها نسبة إلى جد إبراهيم الأعلى عابر بن سام بن نوح ، كما ورد فى سفر التكوين الأصحاح ١٣ ، وقد عرف إبراهيم عليه السلام بهذا اللقب . كما جاء فى نفس السفر الإصحاح ١٤ .

٣ – أو هى من البداوة ، لأن بنى إسرائيل كانوا بدواً كثير التنقل والترحال وراء الكلأ والمرعى لمواشيهم ، فكلمة « عبرى » مثل كلمة « بدوى » أى ساكن الصحراء والبادية ، فى مقابل « حضرى » أى ساكن المدن ، والأمم المتحضرة من المصريين والكنعانيين وغيرهم هم الذين أطلقوا عليهم هذا اللقب تميزاً لهم عن المتحضرين ، حيث وفد الإسرائيليون عليهم من بطون الصحراء . واليهود لهذا ينفرون كثيراً من التسمية ويفضلون عليها تسميتهم بالإسرائيليين أو اليهود .

وأياً كان منشأ هذه الألقاب التى عرفوا بها ، فهى كلها تسميات تؤكد المعنى الذى نقصده ، وهو أنها تسميات وضعية إصطلاحية خص بها أتباع موسى عليه السلام .


إبراهيم
إسماعيل
اسحاق
يعقوب وهو المسمى إسرائيل
عيسو
رأوبين
شمعون
لاوى
يهوذا
يساكر
زبولون
يوسف
بنيامين
جاد
أشير
دانا
نفتالى
قاهث
عمران
موسى
هارون



الإسرائيليون فى مصر :

ويبدأ تاريخهم فيها بقصة يوسف مع إخوته :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝ ﴾[3]

فألقوه فى غيابات الجب حيث التقطه بعض السيارة وباعوه إلى عزيز مصر ، وكان سن يوسف عليه السلام حين ذاك سبعة عشر عاماً تقريباً ، ولاحق الكيد يوسف عليه السلام على يد إمرأة العزيز التى راودته عن نفسه فأبى واستعصم ، فكان جزاؤه السجن الذى مكث به ثلاثة عشر عاماً ، إلى أن أخرجه فرعون لتأويل حلمه المشهور ، وولاه خزائن الأرض ولم يتجاوز الثلاثين من عمره ونجح يوسف عليه السلام فى تنظيم تموين مصر واقتصادياتها أيما نجاح وبعد تسع سنين جاءه إخوته من أرض كنعان يلتمسون الطعام ، وعرفهم يوسف بنفسه ثم جاء بأبيه وإخوته جميعاً للعيش بجواره فى أرض مصر الطيبة .

ولما كان الإسرائيليون أهل رعى ومواشى ، فقد أسكنهم فرعون شرق الدلتا فى المكان الذى تقع فيه محافظة الشرقية الآن ، وهو المكان الذى أشار به يوسف عليه السلام ، حيث أراد لأهله أن يكونوا بقرب موطنهم الأصلى ، وفى عزلة عن باقى الشعب ، للمحافظة على دينهم وحريتهم فى ممارسة عبادتهم وعاداتهم الخاصة دون إزعاج .

وكان دخول يعقوب عليه السلام وبنيه إلى مصر حوالى القرن السادس عشر قبل الميلاد فى عهد الأسرة السادسة عشرة ، ومصر تحت حكم الهكسوس الذين وفدوا عليها غزاة من آسيا ، واستمر احتلالهم لمصر أربعة قرون تقريباً من الأسرة ١٤ إلى الأسرة ١٨ ، أو الأسرة ١٩ .

---

(٣) يوسف : ٨ - ٩ .

عاش الإسرائيليون فى مصر أكثر من قرنين ينعمون بالأمن والرخاء والتكريم إكراماً ليوسف عليه السلام الذى كان ولا شك قد صار بطلاً قومياً لإنقاذه مصر والمنطقة كلها من خطر القحط والمجاعة ، إلى أن قوى التيار الوطنى واشتد ساعد المصريين وطردوا الهكسوس أو ما يعرف بملوك الرعاة من مصر كلها بقيادة رمسيس الثانى مؤسس الأسرة ١٩ ، والذى يعتبره المؤرخون فرعون الاضطهاد ، لأنه لم يلبث أن فرغ من الهكسوس حتى اتجه إلى تصفية الجالية الإسرائيلية وامتيازاتها التى ارتبطت فى نظر الوطنيين بالهكسوس ، وأمعن فرعون فى تعذيبهم إلى حد أن أمر بقتل ذكورهم وسبى نسائهم وفى تلك الفترة ولد موسى عليه السلام الذى نجاه الله من يد فرعون ، بل ونشأ وتربى فى بلاطه ، إلى أن فر من مصر إلى مدين خوفاً من القتل جزاء قتله مصرياً اعتدى على اسرائيلى ، وفى مدين تزوج من بنت رجل صالح يقول بعض الرواة إنه شعيب عليه السلام ، نظير خدمته عشر سنوات ، وبعد انقضاء الأجل سار بأهله ، وفى سيناء جاءه الوحى كرسول لبنى إسرائيل ، وكان تكليف الوحى له بأمر محدد أن يدعو فرعون مصر ، وهو منفتاح الذى تولى ملك مصر بعد رمسيس ، ويعتبره المؤرخون فرعون الخروج ، يدعوه إلى توحيد الله والسماح لبنى إسرائيل بالخروج من مصر ، ولكن فرعون ، رغم الآيات التى أظهرها الله على يد موسى تصديقاً لدعواه ، لم يسلم بكلا الأمرين ، وازداد إمعاناً فى استكباره وتنكيله بالإسرائيليين ، إلى أن أمر الله موسى بالخروج ببنى إسرائيل ليلاً من مصر ، وتم خروجهم بمعجزة انشقاق البحر الذى غرق فيه فرعون وجنوده(٤) .

وهكذا انتهى تاريخ الإسرائيليين بمصر ، ويرى كثير من المؤرخين أن المدة التى قضوها فى مصر منذ دخولهم فى عهد الأسرة ١٦ إلى خروجهم فى عهد الأسرة ١٩ كان ٢١٥ سنة أى أن خروجهم كان فى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريباً(٥) .

---

(٤) انظر سورة « يوسف » و« طه » و « القصص » ، وكذلك سفر التكوين .
(٥) قصص الأنبياء ص ٢٠٢ - عبدالوهاب النجار - مؤسسة الحلبي - القاهرة ١٩٦٦ .

« بنى إسرائيل » فى سيناء :

وأهم الأحداث التى وقعت لهم فيها أخذاً من القرآن الكريم ، والتوراة ، يمكن إجمالها فيما يلى :

أولاً : نزول التوراة :

نزلت التوراة على موسى ، وفيها الوصايا التى يجب على الإسرائيليين اتباعها سواء فيما يتصل بالله ، أو فيما بينهم ، أو فيما يتصل بعلاقتهم بالآخرين .

ثانياً : تنظيم موسى للشعب الإسرائيلى :

١ - أقام موسى عليه السلام من سبط اللاويين كهاناً لخدمة الهيكل المقدس ، وقصر عليهم حق تفسير الشريعة والقوانين الإلهية ، وحرم عليهم الاشتراك فى الحكم أو تكوين ممتلكات خاصة ، ليتفرغوا تماماً لخدمة الشريعة ، وفى مقابل ذلك أعفاهم من الخدمة العسكرية ، كما حمل باقى الأسباط مسئولية إعالتهم وسد احتياجاتهم المعيشية ، وقد عين هارون عليه السلام رئيساً للكهنة على أن تستمر الرئاسة فى نسله .

وقد أعطى هذا الاختيار ، مكانة أدبية ونفوذاً روحياً واحتراماً عظيماً لهذا السبط فى نفوس الشعب الإسرائيلى .

٢ - أقام موسى عليه السلام من باقى الأسباط جيشاً لحماية الدعوة والجهاد فى سبيل الأرض التى وعدهم الله بها ، وقد فرض الجهاد على الذكور من سن العشرين إلى سن الستين ، ثم عين يوشع بن نون ، وهو من سبط يوسف عليه السلام قائداً لجيش الفتح ، على أن يكون وزيره أو مستشاره الدينى ألعاذار بن هارون .

٣ - وضع للاسرائيليين النظام الذى يجب عليهم اتباعه فى الأرض التى وعدهم الله بفتحها ، فأمرهم بتقسيمها بعدد الأسباط إلى إثنى عشر قسماً متساوياً توزع بين الأسباط بالقرعة .

ثالثاً : عبادة العجل :

فقد حدث أنه بعد أن اطمأن الإسرائيليون لنجاتهم من فرعون ، وحين تركهم موسى لتلقي التوراة فلما استبطأوا عودته سولت لهم أنفسهم ، التي تأثرت بوثنية المصريين ، أن يجعلوا لهم إلهاً كما لهم آلهة ، فصنعوا من حليهم عجلاً جسداً له خوار وعكفوا عليه عابدين ، والقرآن والتوراة متفقان فى هذا ، إلا أن القرآن يذكر أن الذى صنع لهم العجل رجل يدعى السامرى .

يقول الله تعالى :

۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا

فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾[6]

وهكذا نرى أنه بينما يذكر القرآن أن السامرى هو الذى أغوى ، وأن هارون عليه السلام هو الذى أرشد وأهدى ، نرى التوراة تذكر أن الذى صنع لهم العجل هو هارون عليه السلام وهذا نصها :

« ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون . وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر . لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون . انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره

---

(٦) طه ٨٣ - ٩٨ .

بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه . ونادى هارون وقال : غداً عيد للرب . فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب فقال الرب لموسى اذهب أنزل . لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر . زاغوا سريعاً عن الطريق الذى أوصيتهم به . صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر .

فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبيهما . من هنا كانا مكتوبين . واللوحات هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين .. وكان عندما اقترب من المحلة أنه أبصر العجل والرقص . فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسّرهما فى أسفل الجبل . ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل .

وقال موسى لهٰرون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة . فقال هرٰون لا يحم غضب سيدى . أنت تعرف الشعب أنه فى شر . فقالوا اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقلت لهم من له ذهب فلينزعه ويعطينى فطرحته فى النار فخرج هذا العجل » .[٧]

رابعاً : التيه :

سار موسى ببنى إسرائيل إلى الأرض التى وعدهم الله بها ولكن الإسرائيليين الذين تمكن الذل والهوان والصغار من نفوسهم لما لقوه على يد المصريين لم يلبثوا حين رأوا العدو أن طارت أفئدتهم هلعاً ورعباً ، وانقلبوا على أعقابهم مدبرين لا يلوون على شئ ، غير عابئين بنداء موسى وتذكيرهم بما عاهدوا الله عليه ، وشكا موسى إلى الله عصيانهم وتمردهم وقلة حيلته ، فقضى الله على العصاة بحرمانهم من دخولها والتيه فى الصحراء أربعين سنة ، وهكذا ظلوا هائمين على وجوههم فى البرية إلى أن ابتلعتهم الصحراء فى جوفها ، ولم يشأ الله لموسى ولا لهارون عليهما السلام ولا للجيل الذى خذلهما دخول فلسطين ، فقد مات هارون ودفن فى جبل

---

(٧) سفر الخروج [٣٢/١ –٢٤] .

يسمى (هور) من جبال سيناء ولحق به موسى عليه السلام الذى مات وهو جالس على جبل يسمى (نبوّ) ينظر إلى الأرض الموعودة ، ودفن هناك فى كثيب أحمر ، وخفيت معالم قبره[8] .

وإليكم ما يقول القرآن الكريم عن هذا الحدث الذى لا يختلف فى جوهره عما قصته التوراة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[9]

(٨) انظر : سفر العدد ١٣ ، ١٤ ، وسفر التثنية ١ ، ٣٢ ، ٣٤ .
(٩) المائدة : ٢٠ — ٢٦ .

ويمكن تقسيم تاريخهم فى فلسطين ، استخلاصا من مصادرهم مقارناً بما ذكره القرآن في هذا الشأن ، إلى ثلاث فترات ، تبدأ بعصر القضاة ، ثم عصر الملوك ، وأخيراً عهد الانقسام والتشتت .

أولاً : عصر القضاة :

بعد وفاة موسى عليه السلام ، قام بأمر بنى إسرائيل يوشع بن نون يعاونه ألعاذار بن هارون ، كما أمر موسى ، وقد دخل بهم فلسطين عنوة وتم له الاستيلاء على أريحا والمناطق المجاورة لها ، بعد أن أباد أهلها ، ثم قسم الأرض التى استولى عليها بين الأسباط كما أمر موسى عليه السلام ، وظل يوشع يرعى شئون الشعب الذى دان له بالطاعة والولاء طول حياته ، وبعد موته لم يعين الشعب من يخلفه ، واستقل كل سبط بإدارة شئونه واختار من بين شيوخه نقيباً عهد إليه بقيادة الجيش وتعيين القضاة الذين يفصلون بين أبناء السبط حسب الشريعة ، ويلاحظون تطبيقها ، وهكذا بدأ ما يعرف فى التاريخ اليهودى بعصر القضاة الذى استمر ثلاثة قرون تقريباً والذى يمكن إجمال سماته فيما يلى :

١ – كان كل سبط له استقلاله الذاتى فى شئون الأرض والدفاع والقضاء ، ويقوم على أمره نقيب يتولى قيادة جيشه وتعيين قضاته ، ويعتبر النقيب قاضى القضاة فى سبطة ، وبهذا كانت الأسباط أقرب إلى دويلات حليفة منها إلى دولة موحدة .

٢ – كانت الشريعة هى الحكم الذين يدين له الجميع بالطاعة ، والمظهر الوحيد لوحدة الأسباط ، والنقباء أو القضاة يقومون بمهمة مراقبة الشعب فى التزامه بتطبيق الشريعة ، فإذا خرج نقيب أو سبط من الأسباط على حدود الشريعة عامله باقى الأسباط كعدو يجب محاربته لنقضه العهد .

٣ – كثرة النزاعات بين الأسباط وعدم الاستقرار الداخلى ، ولعل الاستقلال الذاتى للأسباط من جهة ، وتضامنهم فى التزام الشريعة وتنفيذها من جهة أخرى ، يفسر لنا كثرة النزاعات والحروب الأهلية التى تعتبر السمة البارزة لعصر القضاة ، كما يفسر لنا كيف أن بعض الأسباط كان يحارب أحياناً الأعداء

الخارجيين منفرداً دون باقى الأسباط ، وكانت هزيمته أو انتصاره لا يعنى هزيمة باقى الأسباط أو انتصارهم .

٤ – كان يتكون من النقباء فى بعض الفترات خصوصاً عند محاربة الأسباط لعدو مشترك ، مجلس أعلى للحرب والقضاء ، له سلطة عليا على كل الإسرائيليين ، وعند اختلاف هذا المجلس ، أو حين تعرض له مشكلة يستعصى عليه حلها ، كان يلجأ إلى الكاهن أو المفسر الأعظم للشريعة لبيان حكم الله فيها ، فهو الوحيد الذى يستطيع مخاطبة الله وتلقى ردوده على ما يقدمه النقباء من أسئلة ، ولكن هذه الردود التى يأتى بها الكاهن ، لا تصبح ملزمة إلا إذا أقرها النقباء ، وهنا فقط تصبح ملزمة لكل القضاة والمخالف لها يقتل فوراً ، **ومعنى هذا أن تفسير الكاهن أو ردوده التى يتلقاها من الله ، لا تصبح قانوناً إلهياً واجب التنفيذ إلا حين يقرها النقباء . فإذا لم يقبلها النقباء تصبح غير ملزمة لأحد ولا قيمة لها** . مما يعنى فى الواقع أن المشرع الحقيقى هم الكهان أو الأحبار .

وكان من حق القاضى أو النقيب أن يلجأ إلى الكاهن مباشرة فى الأمور التى تخص سبطه ويستعصى عليه حلها ، باعتبار الكاهن الأعظم هو المفسر للقوانين الإلهية ، والمستشار الدينى لكل الأسباط .

والواقع أنه طبقاً لما ورد فى التوراة ، فإن موسى عليه السلام هو الذى وضع أصول هذا النظام لبنى إسرائيل[١٠] ، وهذا كله يتم عند عدم وجود نبى ، أما إذا بعث فيهم نبى وقد يكون قاضياً قبل بعثته ، فإنه يكون المرجع الوحيد فيما يخص الشريعة وتفسيرها .

ولكن لا يعترف به نبياً إلا إذا صدقه النقباء وإلا قتل فوراً ، وهذا يفسر لنا ظاهرة قتل الإسرائيليين لكثير من أنبيائهم كما تحدث القرآن فى قوله تعالى :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[١١]

---

(١٠) انظر سفر الخروج ١٨ .

(١١) البقرة : ٦١ .

وكما تحدث سفر القضاة فيذكر أنهم كانوا كثير التمرد على قضاتهم وأنبيائهم .

وعزف هذا العصر بالكفر والالحاد والزندقة ، خذ مثلاً ما جاء فى سفر القضاةالاصحاح ٢ : « **وفعل بنو إسرائيل الشرفى عينى الرب وعبدوا البلعيم وتركوا إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب ، ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى** » .

وظل هذا حال بنى إسرائيل طول عصر القضاة إلى أن لحق الفساد بالقضاة أنفسهم الذين استغلوا مناصبهم للكسب والرشوة فكان قضاؤهم تبعاً لهواهم ومصالحهم الشخصية . فضاعت هيبتهم فى نفوس الشعب ، وازداد الفساد والالحاد بين الإسرائيليين حتى أصبحت الشريعة أو نظام القضاة غير صالح فى توحيد الشعب ، وحدث أن هزم الإسرائيليون أمام الفلسطينيين الذين استولوا على التابوت المقدس ، حيث كان الإسرائيليون يأخذونه معهم فى المعارك الكبرى للاستنصار به وشد أزرهم فى القتال .

حينئذ طلب الشعب من نبى لهم يدعى صموئيل أن يختار لهم ملكاً يحكم ويقيم النظام بينهم ويوحد صفوفهم كما تحكم الشعوب الأخرى ، ولنقرأ ما يقوله سفر صموئيل الأول عن هذه الفترة ، يقول :

« **وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لإسرائيل . ولم يسلك ابناه فى طريقه بل مالا وراء الكسب وأخذوا رشوة وعوجا القضاء ، فاجتمع شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل .. وقالوا له ، هو ذا أنت قد شخت وإبناك لم يسيرا فى طريقك فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر فى عينى صموئيل ، إذ قالوا اعطنا ملكا يقضى لنا ، وصلى صموئيل إلى الرب فقال الرب : اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك ، لأنهم لم يرفضوكم أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من أرض مصر إلى هذا اليوم وتركونى وعبدوا آلهة أخرى** »[١٢] .

وهكذا بدأ العصر الثانى بعد انهيار عصر القضاة ويتحدث القرآن عن

---

(١٢) الإصحاح ٨ : ١ - ٩ ، وانظر الإصحاح : ٤ - ٦ ، الذى يتحدث عن استيلاء الفلسطنيين على التابوت المقدس ، مما يعد إشارة لها دلالتها على فقد التوراة فى مرحلة متقدمة من تاريخ بنى إسرائيل .

مرحلة التحول هذه فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ

لِلَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾(13)

ثانياً : عصر الملوك :

١ - شاؤول : وهو الذى يسميه القرآن « طالوت » .

وقد اختاره صموئيل بتوجيه من الرب ملكاً على بنى إسرائيل ، ولما طالب الشعب مبايعته كان ردهم كما يتحدث به القرآن الكريم :

﴿ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾(14)

فاستجاب له الشعب على كره من كثير منهم ، وقادهم طالوت فى معارك ناجحة حتى تم له الإنتصار على عدوهم على يد داود عليه السلام الذى حسم المعارك بقتله قائدهم جالوت ، وتلك القصة يتفق القرآن مع العهد القديم فى مضمونها ، إلا أن أسفار اليهود تعرض لتفاصيل كثيرة عن الصراع الدموى بين طالوت وداود بعد الانتصار على الفلسطينيين ، ثم استمرار الصراع بين داود وأبناء شاؤول إلى أن

---

(١٣) البقرة : ٢٤٦ - ٢٥١ .

(١٤) البقرة : ٢٤٧ .

تم الأمر لداود بذبح أبناء شاؤول وقوادهم ، وتنصيبه ملكاً على بنى إسرائيل كلها[١٥] وفى هذا فإن لغة القرآن تفترق عن التوراة فى الحديث عن داود عليه السلام ، حيث يتحدث القرآن عنه كنبى يتصف بكل ما يتصف به النبى من النبل ومكارم الأخلاق ، بينما تتحدث عنه التوراة كملك يتصف بكل ما يتصف به ملك جبار من القسوة والبطش . وهذا أمر له دلالته العميقة فى التمييز بين لغة الوحى ولغة البشر .

٢ - داود عليه السلام :

وبهذا أصبح داود الملك الثانى على بنى إسرائيل ، وبعد أن استتب له الأمر ودان له الشعب بالطاعة والولاء ، إتجه إلى إخضاع الممالك المجاورة فى فلسطين وتم له الإستيلاء على أهم مدنها وهى أورشليم التى أصبحت عاصمة إسرائيل فى عهده وعهد سليمان عليهما السلام[١٦] .

٣ - سليمان عليه السلام :

وقد بدأ حكمه كما يقول سفر الملوك الأول ، بقتل أخيه الأكبر وقائد الجيش ، وبعدها استتب له الملك والسيادة وخضع له الشعب ودان له بالطاعة والولاء ، وقد أدار سليمان شئون الدولة بحنكة وحكمة هيأت له ترسيخ أقدامه فى كل الأرض التى فتحها داود ، وزاد عليها ، ونعمت الدولة فى عهده بالاستقرار والازدهار والاحترام من الدول المجاورة ، حتى تقرب إليه فرعون مصر بالمصاهرة ، وهذا أمر له دلالته على قوة سليمان ، فلا يمكن أن يعطى فرعون مصر ابنته زوجة لسيمان إلا إذا كان قد بلغ ملكه من القوة حداً جعله نداً لملك عظيم مثل فرعون .

وقد هيأ ذلك لسليمان تحقيق أهم حدث فى تاريخ الإسرائيليين بعد موسى عليه السلام ، وهو بناء الهيكل المقدس فى أورشليم : « **وكان فى سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان عليه السلام** »[١٧] **وتم نقل التابوت المقدس إليه** و « **لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر** »[١٨] .

---

(١٥) انظر صموئيل الأول والثانى .

(١٦) انظر سفر صموئيل الثانى .

(١٧) سفر الملوك الأول ٦ : ١ .

(١٨) سفر الملوك الأول ٨ : ٩ .

وكما هو الشأن فى بنى إسرائيل ، وطبقاً لأسفارهم ، فإن سليمان لما تقدمت به السن وخفت قبضته على أعناقهم تمرد عليه الشعب وتطلعوا إلى ملك جديد فتآمر عليه ابنه يربعام ومعه كثير من شيوخ بنى إسرائيل ، ولكنه فر من وجه أبيه إلى مصر حين انكشف أمره ، كما تمرد عليه كثير من الممالك التى كانت فى يده .

وهكذا مات سليمان كما يقول سفر الملوك الأول ، وقد تقلص ملكه إلى أقل مما ورثه عن أبيه داود عليه السلام .

والواقع أن تمرد الإسرائيليين ظاهرة بارزة فى تاريخهم كله ، كما تعرضه أسفارهم ، حيث نجد علاقتهم بحكامهم ، سواء كانوا أنبياء أو قضاة أو ملوك ، علاقة تقوم على العداء والتربص وكأنها علاقة بين طرفين متناقضين الغلبة فيها للأقوى ، بمعنى أنه ما من نبى أو قاض أو ملك ، إلا ويأتى عقب عصيان وتمرد وينتهى أمره بالعصيان والتمرد .

والحاكم لا يستتب له الحكم عليهم إلا بمقدار ما فيه من بطش وقوة ، وبمقدار ما فيه من بأس يكون مقدار طاعتهم وولائهم له ، ولكن عند أول بادرة ضعف أو تسامح أو حين تخف قبضته عن رقابهم ، يتمرد عليه الشعب ويستهين به ، وينتهى أمره إما إلى القتل أو إلى زوايا النسيان والإهمال وظل هذا حالهم حتى إنتهى الأمر بدولتهم إلى التفكك والإضمحلال .

ثالثاً : عهد الانقسام :

فإنه بعد موت سليمان عليه السلام سنة ٩٣٥ ق م تقريباً ، إجتمع الشعب فى أورشليم لتنصيب رحبعام مكان أبيه ، ولكنهم اشترطوا عليه أن يرفع عن كواهلهم الكثير مما فرضه عليهم سليمان من أحكام ، ولكنه رفض ذلك ، فانحاز معظم الشعب إلى أخيه يربعام الذى عاد من مصر بعد موت أبيه ولم يبق مع رحبعام سوى سبط يهوذا .

وبهذا انقسمت الدولة بين ابنى سليمان عليه السلام إلى دولتين متنازعتين .

إحداهما فى الشمال وتسمى إسرائيل ، وعاصمتها شكيم التى بناها يربعام لتكون عاصمة ملكه .

والأخرى فى الجنوب وتسمى يهوذا وعاصمتها أورشليم وملكها رحبعام .

ولم يتوقف القتال الذى سالت فيه دماء الإسرائيليين أنهاراً ، بين الدولتين ، كما يقول سفر الملوك الأول : « **وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام** » . حتى انتهى المآل بالإسرائيليين إلى الشتات والتشرد فى الآفاق .

ولم يجتمع الأخوان على شئ ، اللهم إلا إتفاقهما فى تحريف الشريعة والإلحاد وعبادة الأوثان .

فبالنسبة ليربعام يقول سفر الملوك الأول [١٢ : ٢٥ : ٢٨] : « **وبنى يربعام شكيم .. وقال فى قلبه .. إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح فى بيت الرب فى أورشليم ، يرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلوننى .. فاستشار الملك وعمل عجلى ذهب وقال لهم كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم ، هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر** » .

وأما رحبعام فلم يكن أحسن حالاً من أخيه ، يقول عنه سفر الملوك الأول [١٤ : ٢١ - ٢٤ » .

« **وأما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا ، وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبعة عشر سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط بنى إسرائيل .. وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أخطأوا بها ، وبنوا هم أيضاً لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسوارى على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء ، وكان أيضاً مأبونون فى الأرض : فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل** » .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه بالإضافة إلى ذلك الفساد ، بل ربما نتيجة له ، فقد تم فى عهد رحبعام أول تدمير للهيكل الذى بناه سليمان ووضع فيه التابوت المقدس الذى يحتوى التوراة ، على يد المصريين ولعل ذلك كان بإيعاز من يربعام ، ويعد ذلك المرة الثانية التى تفقد فيها التوراة ، يقول سفر الملوك الأول [١٤ : ٢٥]

« **وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شبشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ ..** »

وبإنقسام الدولة وإنحلالها دينياً ، أصبح تاريخ بنى إسرائيل سلسلة متصلة من المعارك والهزائم ، سواء فيما بينهم أو مع جيرانهم ، إلى أن قضى الله على بنى إسرائيل كشعب وكدولة على يد بختنصر ملك بابل الذى قضى عليهم قضاءاً مبرماً ومن بقى منهم اتخذهم عبيداً له ، وهو ما يعرف فى تاريخ اليهود بالأسر البابلى سنة ٥٨٦ ق م تقريباً ، وفيه تم التدمير الثانى للهيكل ولأورشليم كلها ، وقد وصف سفر الملوك الثانى ٢٥ ، ما فعله بختنصر بالإسرائيليين خير وصف ، ويكفينا أن نقتبس منه هذه الفقرة :

« وفى الشهر الخامس ، وهى السنة التاسعة عشر للملك نبوخذ ناصر ملك بابل ، جاء بنوزرادان رئيس الشرطة عبد ملك بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرطة ، وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم بنوزرادان رئيس الشرطة » .

ولكن فى سنة ٥٣٨ ق م تقريباً احتل قورش ملك الفرس بلاد بابل ، وأطلق الإسرائيليين من الأسر وسمح لمن يريد العودة إلى فلسطين ، وقد عادوا لا بصفتهم دولة ولكن كجالية لها الحق فى ممارسة شعائرها الدينية والاجتماعية فى حرية تحت سلطان الحكم الفارسى الذى كانت تتبعه فلسطين ، وفى هذه الفترة قيل ، أن الفرس قد أطلقوا على الإسرائيليين اسم اليهود وعلى عقيدتهم اليهودية ، تمييزاً لهم عن باق السكان فى فلسطين ، وظل وضع اليهود قلقاً بفلسطين منذ ذلك التاريخ حيث تعاقب عليها الإحتلال الفارسى والسورى والمصرى إلى أن استولى عليها الأسكندر المقدونى ٣٢٠ ق م وآلت إلى البطالسة بعده ، وظلت فلسطين بعد ذلك تحت حكم الروم معظم الوقت إلى بعثة عيسى عليه السلام .

كتبهـــم المقدســـة

أولاً : التوراة :

والتوراة هى كتاب اليهود المقدس .

ومعناها الشريعة أو التعاليم الدينية التى أبلغها موسى لقومه فى سينا بعد خروجهم من مصر وهى على صورتها الموجودة الآن عبارة عن خمسة أسفار :

سفر التكوين أو الخلق :

ويشتمل على قصة خلق العالم والإنسان ، وقصة خطيئة آدم وخروجه من جنة عدن ، وهى عندهم فى الأرض وليست فى السماء ، وحياته بعد خروجه من الجنة وأولاده حتى حادث الطوفان .

ثم نشأة الشعوب بعده ، ثم قصة إبراهيم ورحلاته ونسله ، اسحق ويعقوب وأولاده الإثنى عشر وإسماعيل عليه السلام .

ثم قصة يوسف وما حدث له من أخوته ودخوله مصر إلى أن أصبح له شأن كبير بها .

ثم دخول يعقوب وأولاده ، وهم أخوة يوسف ، مصر ، وينتهى هذا السفر بموت يوسف عليه السلام .

سفر الخروج :

ويتناول قصة بنى إسرائيل فى مصر واضطهادهم .

ثم ظهور موسى ونبوته وحواره مع فرعون والآيات التى ابتلى بها فرعون وقومه ، حتى خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر ، وما حدث لهم ومنهم فى الصحراء ، ونزول التوراة على موسى .

ثم يستمر السفر فى سرد تاريخهم فى هذه الفترة حتى يصل بهم موسى إلى أبواب فلسطين .

سفر اللاويين أو الأحبار :

ويحتوى هذا السفر على كثير من التشريعات والوصايا والأحكام والطقوس والعبادات والقرابين وغيرها من المسائل التشريعية .

سفر العدد :

وسمى بذلك ، لأنه حافل بالعدد والتقسيم لأسباط بنى إسرائيل ، وترتيب منازلهم حسب أسباطهم وحصر الذكور منهم ، بالإضافة إلى سيرة بنى إسرائيل فى سيناء ، وهو بهذا استمرار لسفر الخروج .

سفر التثنية :

ومعناه الإعادة والتكرار ، وفيه عرض للوصايا العشر ، كما أعيد الكلام فيه عما تحدث عنه سفر الأحبار ، من حديث عن الحلال والحرام والأحكام والشريعة .

كما يتحدث هذا السفر عن اختيار يوشع بن نون خلفاً لموسى ، وينتهى السفر بالحديث عن موت موسى عليه الصلاة والسلام ، ودفنه فى جبال مؤاب .

ثانياً : أسفار أخرى :

وعددها أربعة وثلاثون سفراً كتبت على لسان أنبيائهم وأحبارهم بعد موسى .

وهى عبارة عن سرد تاريخى لأحوال اليهود وأنبيائهم وأحداثهم بعد دخولهم فلسطين إلى أن زالت دولتهم فيها . وتشكل مع التوراة ، تسعة وثلاثون سفراً ، يطلق عليها ما يعرف الآن بالعهد القديم ، وتلك الأسفار هى :

يشوع – القضاء – راعوث – صموئيل الأول – صموئيل الثانى – الملوك الأول – الملوك الثانى – أخبار الآباء الأول – أخبار الأيام الثانى –عزرا – نحميا – استير – أيوب – المزامير – الأمثال – الجامعة – نشيد الإنشاد – إشعياء – ارمياء – مراثى – ارمياء – حزقيال – دانيال – هوشع – يوئيل – عاموس – عويديا – يوثان ميخا – ناحوم – حبقوق – صفنيا – حجى – زكريا – ملاخى .

ثالثاً : التلمود :

وهو كتاب مقدس عند اليهود مثل التوراة ، وضعه أحبار اليهود وحاخاماتهم تفسيراً للتوراة ، ومعناه كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابها .

وقد كتب أكثر من مرة وأول من كتبه حاخام يدعى « يوحناس » سنة ١٥٠ م تقريباً وسماه « المشنا » أى الشريعة المكررة تفسيراً للتوراة وتكميلاً .

ثم أضاف له حاخامات اليهود إضافات كثيرة فى السنين التالية ، حتى كمل على يد حاخام يدعى « يهوذا » سنة ٢١٦ م بعد أن جمع النص الأصلى وأضاف له شروح الحاخامات وإضافاتهم ثم أخرجه فى كتاب واحد .

ولكن « المشنا » كانت شديدة الغموض بالنسبة للعامة من اليهود ، فأخذ علماء اليهود وحاخاماتهم فى وضع الشروح والحواشى عليها ، وأطلق على تلك الإضافات « جماراً » .

ومن « الجماراً » و « المشنا » يتكون التلمود[١٩] .

---

(١٩) انظر مقارنة الأديان – اليهودية : ٢٧١ وما بعدها .

اعتقـــاداتهم[٢٠]

وتدور اعتقادات اليهود حول الأمور الآتية :

أولاً : عدم جواز النسخ :

فهم يدعون أن الشريعة لا تكون إلا واحدة . وقد ابتدأت بموسى وتمت به فلم توجد شريعة نزلت من السماء قبله ولن تنزل شريعة بعده .

وبناء على هذا فالنسخ عندهم غير جائز ، استدلوا على ذلك ، بأن النسخ معناه العدول عن أمر سابق إلى أمر بدا لله أنه أفضل منه ، ولما كان البداء مستحيل على الله ، إذن فالنسخ مستحيل .

وهم يتمسكون بهذا الحكم ، لاتخاذه دليلاً على أن شريعة موسى ، هى الشريعة الإلهية الوحيدة ، التى لم ينزل قبلها ولا بعدها شريعة أخرى . مع أن هذه العقيدة ينقضها نصوص صريحة فى التوراة وأسفارهم الأخرى رفعت أحكاماً كثيرة سبق الأمر بها أو أحلت أو حرمت أموراً على خلاف ما سبق الأمر به وقد أورد ابن حزم أمثلة عديدة لها[٢١] .

ثانياً : التشبيه :

فقد قالوا فى الله بالتجسيم ، ويفسرون كل ما ورد من آيات التوراة مثل « الصورة » و « المشافهة » و « التكلم جهراً » والنزول إلى طور سيناء ، وغير ذلك من النصوص ، على ظاهرها ، ويعتقدون أن لله من الصورة والشكل والجسم والصفات ما يشبه الإنسان ، إلا أنهم يفرقون بين الله ، تعالى عن قولهم ، وبين الإنسان ، فى عظم الحجم الذى يتخيلون أنه من العظم والضخامة ما يفوق الإنسان بكثير ، إلا أنه يجوز عليه ما يجوز على الإنسان من السهو والحزن والندم والنَصَب والحاجة إلى الراحة وغير ذلك من الأعراض التى تلحق الإنسان ، ونصوص التوراة وأسفارهم تصنع من الله صورة انسانية صريحة فى التجسيم

(٢٠) الملل والنحل : ١/١٩٢ وما بعدها .
(٢١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، جـ ١ ص ١٠٣ – ١٠٥ ، مكتبة المثنى بغداد .

والتشبيه ، والمقام يضيق عن سرد النصوص فى هذا المجال لكثرتها وشيوعها منها مثلاً :

« **وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا .. فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه** » [تكوين : ١/٢٦ – ٢٧] .

« **سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه ، لأن الله على صورته عمل الإنسان** » [تكوين : ٩/٦] .

« **يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله** » [تكوين : ٥/١] .

« **وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل وبارك اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً** » [تكوين : ٢/١ – ٢] .

« **ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض .. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه** » [تكوين : ٦/١٠] .

ويؤكد التلمود وهو كتابهم المقدس بعد التوراة والذى يعتبر شرحاً وبياناً وتفسيراً للتوراة التشبيه والتجسيم فيقول : (**إن مساحة جبهة خالقهم من أعلاها إلى أنفه خمسة آلاف ذراع وأن فى رأسه تاجاً فيه ألف قنطار من ذهب ، وفى أصبعه خاتم تضئ منه الشمس والكواكب**) انظر الفصل جـ١ ص ٢٢١ .

ثالثاً : الجبر والاختيار :

وهم فيه على مذهبين :

فرقة تقول بحرية الإرادة الإنسانية واستقلالها عن الإرادة الإلهية ، فالإنسان هو الذى يخلق أفعاله خيرها وشرها ، وهو مسئول عنها ، والله تعالى لا يريد الشر ولا يفعله ، ومذهب هذه الفرقة قريب من قول المعتزلة فى الإسلام .

وهؤلاء يسمون « العقليون » أو « الربانيون » وهم طبقة المفكرين من اليهود .

أما الفرقة الأخرى وهم جمهور اليهود ، فيذهبون إلى الجبر وأن الفعل كله بيد الله ، فلا راد لقضائه وقدره ولا لمشيئته ، فلا مشيئة ولا اختيار للإنسان تجاه الرب الذى بيده كل شئ ، حياة الإنسان وموته وشقاؤه وسعادته وخيره وشره ، كلها من عمل الله .

ويطلق على هذه الفرقة « القراءون » أو « النصيون » .
وهؤلاء لهم نظير فى فرق المتكلمين فى الإسلام مثل الجبرية ، الذين يقولون إن الإنسان كريشة معلقة فى الهواء تميلها الريح حيث مالت .

رابعاً : الرجعة :

ومعناها الاعتقاد بعودة إنسان بعد موته أو غيبته ، واليهود يعتقدون بها ، ويعتمدون فى ذلك على أمرين :
الأول : حديث : (عزير) إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه .
الثاني : حديث هارون عليه السلام ، إذ مات فى التيه فى حياة موسى وقد نسبوا إلى موسى ، زوراً وبهتاناً ، أنه قتله بالألواح حسداً منه وغيرة ، لأنه كان أحب إلى اليهود منه ، واليهود فى أحاديثهم عنه يبجلونه ويميلون إليه أكثر من موسى عليه السلام ،
وقد اختلفوا فى حال موته .
فمنهم من قال أنه مات حقيقة ثم يحيا من جديد ويرجع إليهم .
ومنهم من قال : إنما غاب فقط وسيرجع .

ولعل جذور هذه العقيدة تعود إلى البدايات المتقدمة فى الفكر اليهودى حيث نجد التوراة تتحدث عن « أخنوخ » الحفيد الخامس لآدم عليه السلام أنه لم تنته حياته بالموت كآبائه وإخوانه وإنما غاب أو رفع ، تقول :
« **وعاش اخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح ، وسار أخنوخ بعدما ولد متوشالح ثلاث مئة وولد بنين وبنات ، فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة ، وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه** » [تكوين ٢١/٥ - ٢٤]

ودعوى الرجعة نجد مثلها عند كثير من فرق الشيعة ، وكان أول من قال بها ونشرها بين المسلمين ، عبد الله بن سبأ الذى كان يهودياً فأسلم فى زمن عثمان ابن عفان رضى الله عنه .

خامساً : المسيح المنتظر :

يقول الشهرستانى إن اليهود يجمعون على : (أن فى التوراة بشارة بواحد بعد موسى ، وإنما افتراقهم فى تعين ذلك الواحد أو فى الزيادة على ذلك الواحد .

وخروج واحد فى آخر الزمان ، هو الكوكب المضئ الذى تشرق الأرض بنوره ، أيضاً ، متفق عليه ، واليهود على انتظاره ، والسبت يوم ذلك الرجل[٢٢] .

(٢٢) الملل والنحل ١/٢٠٠ .

فـــرق اليهـــود

وافترقت اليهود إلى أكثر من سبعين فرقة وأهمها :

أولاً – الفريسيون :

ومعناها المنعزلون أو المنشقون ، ويطلقون على أنفسهم (الأحبار) أو (الربانيين) .

معتقداتهم :

١ – يعتقدون أن التوراة خلقت منذ الأزل فى ألواح مقدسة ثم أوحى الله بها إلى موسى .

٢ – يعتقدون باليوم الآخر والبعث والملائكة وغيرها من الأمور السمعية .

٣ – يميلون إلى الزهد ويدعون إلى الترهب ، لأن الدنيا دار بلاء ، وعلى المؤمن أن يتقى شرها ويبتعد عن أوزارها ومتعها الفانية ، ابتغاء الخلاص والخلود فى النعيم الأخروى ، وهم يحرمون تقديم القرابين فى المعابد وغيرها من الطقوس التى ابتدعها الكهان .

٤ – يعتقدون بعصمة الحاخامات ، ويؤمنون بأن ما يصدر عنهم إنما هو وحى من الله يجرى على ألسنتهم ، فهم الذين وضعوا التلمود بإلهام من الله تفسيراً وشرحاً للتوراة ، ومن هنا كان التلمود مقدساً مثل التوراة ، بل أكثر تقديساً ، لأنه هو مفتاح فهم التوراة ومعرفة مقاصدها .

ومن أقوالهم فى تقديس حاخاماتهم : ويلزم المؤمن أن يعتبر أقوال الحاخامات كالشريعة ، لأن أقوالهم ، هى قول الله الحى ، فإذا قال الحاخام : إن يدك اليمنى هى اليسرى ، وبالعكس ، فصدق قوله ولا تجادله .

٥ – يقولون بالجبر وأن كل شئ قدر على طريقة لا يمكن تغييرها .

٦ – لا يعترفون بعيسى ولا يؤمنون برسالته ، ويذهبون إلى أن المسيح لم يأت بعد ، وهم قائمون فى انتظاره ليقودهم إلى الخلاص من الخطايا وسيادة بنى إسرائيل على العالم .

ثانياً : الصدوقية :

نسبة إلى رجل يدعى « صادوق » وكان الكاهن الأعظم فى عهد سليمان

عليه السلام . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن تسميتهم بالصدوقية أى الصديقين من باب تسمية الأضداد ، لأنهم عرفوا بالإنكار ، وتكذيب من عداهم من اليهود .

معتقداتهم :

١ – ينكرون البعث والحياة الأخرى ، وأن هناك حساب وجزاء من جنة ونار ، وإنما الحياة هى الحياة الدنيا ، والجزاء إنما هو الجزاء الدنيوى ، كما ينكرون أن يكون لله ملائكة ، أو أن هناك جن أو شياطين .
٢ – ينكرون أن تكون التوراة الموجودة الآن هى التى أتى بها موسى وإنما هى أقوال جمعت من شفاة الكهان وشيوخ اليهود ، ولهذا فهم لا يعتقدون بقدسيتها ، كما أنهم لا يعتقدون فى التلمود .
٣ – ينكرون القضاء والقدر ، وأن لا سلطان لأحد على الإنسان وحريته ، فأفعاله من صنع يده ، وليست من صنع أحد سواه ، فلا شأن لله بأفعالنا ولا أحوالنا .
٤ – ينكرون المسيح المنتظر ولا يعتقدون بنزوله .
٥ – يقولون بالتجسيم والتشبيه فى الله سبحانه وتعالى ، فهو فى اعتقادهم على صورة الإنسان . ويثبتون له إبناً ، فيقولون عزير ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ثالثاً : القراءون :

وأطلق عليهم هذا الاسم ، لأنهم كانوا يشتغلون بكتابة الشريعة وتلاوتها ويطلق عليهم الحكماء ، أو الوعاظ .

معتقداتهم :

١ – يعتقدون بالتلمود وقداسته . ولكنهم بالنسبة للتوراة ، يعترفون ببعضها وينكرون البعض الآخر ، ويذهبون إلى أنه من وضع الفرق الأخرى ، وليس من التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام .
٢ – يبيحون الاجتهاد والرأى فى التوراة والحرية فى الأخذ ببعض أحكامها أو عدم الأخذ بها ، أما التلمود ، فلا يجوزون فيه ذلك[٢٣] .

---

(٢٣) الملل والنحل للشهرستاني ١٩٢/١ – ٢٠٠ ، مقارنة الأديان – اليهودية – شلبى ٩٨ وما بعدها .

وتعنى أخلاق المنحرفين منهم ، أما الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، وهم للأسف فئة قليلة ، فهم إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، الذين قال القرآن عنهم :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (٢٤)

أما عن المنحرفين فيكفى أن نتصفح كتب اليهود المقدسة ، حتى نلاحظ كيف كانوا على طرفى نقيض مع رسلهم وما يمثلوه من قيم وأخلاق فاضلة ، وإلى أى حد كانت قلوبهم قاسية لا تلين للخير ولا تستجيب للحق ولا تخشع لذكر الله ، وكأنها :

﴿ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٥)

أما قلوب هؤلاء فلم يتفجر منها إلا الحقد الأسود على غيرهم من الشعوب المؤمنة الخيرة . وصدق الله العظيم :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ (٢٦)

الذين حرفوا من ضمن ما حرفوا وهو كثير ، نعمة الله عليهم بما أرسله لهم من رسل وكتب تهديهم إلى الحق والعمل به ، حرفت نفوسهم المريضة تلك النعم

---

(٢٤) الأعراف : ١٥٩ . (٢٥) البقرة : ٧٤ . (٢٦) المائدة : ٨٢ .

إلى امتياز عنصرى ، وزين لهم شيطانهم أنهم شعب الله المختار الذى اختارهم لذواتهم وأشخاصهم ، مع أن الله كثيراً ما ذكرهم أن تكريمه لهم إنما هو بمقدار تكريمهم للحق وإعلاء كلمة الله فى نفوسهم وانقيادهم التام لأمر الله ونهيه ، وإلا فهم كالأنعام بل أضل ، لنقرأ هذه الآيات التى تعرض ادعاءاتهم الكاذبة ثم تفندها :

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ (٢٧)

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ (٢٨)

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ

(٢٧) البقرة : ٨٠ - ٨١ .
(٢٨) البقرة : ١١١ - ١١٢ .

بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢٩)

﴿ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣٠)

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣١)

ثم يبين لهم الله المعيار الصحيح للامتياز والفضل فيقول :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ (٣٢)

هذا الاعتقاد الخاطئ بتميزهم العنصرى والدينى وأنهم شعب الله المختار رسب فى نفوسهم نوعاً من الانحراف والإحساس بأنهم نوع خاص من البشر يتفوق على غيره من الشعوب بالذكاء والحكمة وكل شئ . وأن من حقهم وحدهم السيادة على البشر جميعاً .

---

(٢٩) البقرة : ١٣٥ - ١٣٦ .
(٣٠) آل عمران : ٧٥ - ٧٦ .
(٣١) المائدة : ١٨ .
(٣٢) المائدة : ٦٨ .

وقد أدى بهم هذا الاعتقاد الكاذب إلى اعتبار بقية الشعوب كافرة لا تستحق الحياة إلا لخدمتهم وأن كراهيتهم وبغضهم لهذه الشعوب يعتبر تقرباً إلى الله ، كما أدى اعتقادهم أن دياناتهم خاصة بهم فضلهم الله بها على البشر ، باعتبارهم شعبه الوحيد الذى اصطفاه لنفسه من بين الشعوب ، إلى العزلة والاستعلاء والانغلاق على أنفسهم وسد كل سبل التعاون والإخاء مع غيرهم ، وأقام حائطاً سميكاً من الكراهية والحقد الشديد بينهم وبين مختلف الشعوب ، وعزلة قائمة على الكراهية والعدوان لا المسالمة ، عزلة المتربص الذى يترقب الفرصة للانقضاض على عدوه .

وهذا الحقد أو حائط الكراهية القائم على الاستعلاء والعنصرية الدينية والجنسية ، فيه التفسير الكافى لاضطراب النفسية اليهودية وتوترها الشديد وشعورها الدائم بالقلق والغربة . مما انعكس أثره ليس على علاقتهم بالشعوب الأخرى فقط ، وإنما على علاقتهم الداخلية فيما بينهم ، وما ترويه أسفارهم يؤكد صدق ما نقول ، فهم دائماً كما يقول القرآن الكريم :

﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[٣٣]

وسبنوزا الفيلسوف اليهودى يعطينا تحليلاً دقيقاً يفيدنا فى تبين أثر النزعة العنصرية فى التكوين النفسى والأخلاق لليهود ، يقول : « الفرح الذى يشعر به المرء نتيجة اعتقاده أنه أسمى من الآخرين ، إن لم يكن شعوراً طفولياً فإنه لا ينشأ إلا من الحسد أو من القلب الحاقد ، مثال ذلك . أن الهناء الحقيقى وسعادة الإنسان لا يكونان إلا فى الحكمة وحدها ومعرفة ما هو حق . وليس على الإطلاق فى أن يكون أحكم من الآخرين أو فى أن يكون الآخرون محرومين من الحكمة . لأن ذلك لن يزيد أبداً من حكمته الخالصة أو من هنائه الحقيقى . فمن يفرح لذلك يفرح لشقاء الآخرين ، ويكون حسوداً شريراً لا يعلم الحكمة الحقيقية أو طمأنينة النفس الحقة »[٣٤] .

كما يحلل الدكتور فؤاد زكريا ذلك النوع من التعصب الذى يتفرد به اليهود وأثره فى تشكيل نفسيتهم وعلاقتهم بالآخرين فيقول بعد أن يعرف التعصب

---

(٣٣) الحشر : ١٤ .

(٣٤) رسالة فى اللاهوت والسياسة : ١٧١ – ترجمة حسن حنفى – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .

السلبى بأنه : « فى أساسه نظرة سلبية إلى الغير ، والمتعصب يتجه بتفكيره إلى إلحاق الضرر بالغير أكثر مما يميل إلى تأكيد مزاياه الشخصية أو كسب منفعة لنفسه »[٣٥] فيقول :

« إن من الشائع ، عند تحليل الهيكل البنائى للتعصب ، أن يقال إن التعصب ينشأ عند الأغلبية ضد الأقلية أولاً ، وأن تعصب هذه الأخيرة ليس إلا رد فعل دفاعياً تقوم به لحماية نفسها من الاضطهاد الذى تمارسه عليها الأغلبية .. غير أن هناك حالات قليلة يكشف التحليل الجدلى عن خروجها على هذا النمط المألوف ، أعنى حالات يبدأ فيها التعصب لدى الأقلية ، وتضطر الأغلبية إلى القيام بردود فعل دفاعية ضدها ، أو إلى ممارسة تعصب مضاد أشد وأعنف من التعصب الأصلى ، وقد شهد عصرنا الحاضر نموذجاً فريداً لهذا اللون من التعصب فى رودسيا وجنوب افريقيا ..

على أن تاريخ اليهودية يمكن أن يعد مثالاً صارخاً امتد عبر مئات طويلة من السنين لهذا اللون الفريد من تعصب الأقلية ضد الأغلبية ، ومن الجدير بالذكر أن الأقلية اليهودية لم تكن فى أية حالة من الحالات أقلية حاكمة مسيطرة على زمام الدولة ، كما هى الحال بالنسبة إلى الأوربيين فى روديسيا وجنوب افريقيا ، وإنما كانت أقلية ضعيفة من الوجهة السياسية ، ومع ذلك فقد كانت وهى فى حضيض الضعف تمارس نوعاً من الاستفزاز يدفع المجتمع الذى توجد فيه إلى اضطهادها رغماً عنه .

ذلك لأن أسطورة شعب الله المختار ، مهما قيل عنها ، تقوم بدور حقيقى فى التراث اليهودى ، صحيح أن المستنيرين من أبناء هذا التراث يحاولون تفسيرها بمعان غير عنصرية ، ولكن هناك شواهد قاطعة على أن هذه الأسطورة تكون جزءاً لا يتجزأ من التكوين النفسى لليهودى العادى ، وتدفعه إلى أنواع من السلوك لابد أن تؤدى آخر الأمر إلى التصادم بينه وبين مجتمعه ..

ولعل أبلغ دليل على ما نقول هو أن اليهود ، مهما كان مقدار ضعفهم فى مجتمع ما ، يرفضون الاندماج فى هذا المجتمع ، ويعدون هذا الاندماج علامة على انهيارهم ، فيعملون على مقاومة هذا الانهيار بكل ما يملكون من قوة ، ذلك لأن الاندماج فى الأغلبية والحصول على نفس حقوقها على قدم المساواة هو الحلم البعيد

---

(٣٥) آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة ص ٥٠ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م .

الذى تكافح من أجله الأقليات المضطهدة فى جميع أرجاء العالم .. أما فى حالة الأقلية اليهودية فإن الاندماج يعد فى نظرها أفظع الجرائم التى يمكنها أن ترتكبها فى حق ذاتها ، إنه خيانة للتراث اليهودى وضياع لكل ما هو مميز [للشعب المختار] ، ومن هنا كانت صعوبة التعامل مع الأقليات اليهودية وحتمية تحول هذا التعامل إلى اضطهاد حتى فى المجتمعات التى لم تكن تنوى ممارسة هذا الاضطهاد أصلا ، إذ أن هذه المجتمعات لو منحت الأقلية اليهودية حقوقها المتساوية وعملت على إدماجها فيها وإذابتها ذوباناً تاماً ، لقوبل هذا الادماج بمقاومة عنيفة منها ، ولو تركتها تعيش على هامش الجماعة الكبيرة لارتفع صراخها بالشكوى من الاضطهاد .

وواقع الأمر أن وجود نوع من الإحساس بالظلم والاضطهاد كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من القوة الدافعة التى ساعدت اليهود على التماسك والاحتفاظ بتراثهم على مر العصور وإذا وعينا هذه الحقيقة جيداً ، لتبين لنا أن الوصول إلى تسوية نهائية على أساس التعايش السلمى مع دولة قائمة على أساس عنصرى مثل إسرائيل ، هو أمر يكاد يكون فى حكم المستحيلات »(٣٦) .

ويكفينا فى هذا المجال أن نعرض بعض مواقف اليهود كما ذكرها القرآن . كنموذج يتضح منه خصائص النفسية اليهودية وأخلاقها ، وقد راعينا أن تكون تلك المواقف ، متفقة مع ما ذكرته أسفارهم التى هى فى الواقع أكثر إسهاباً فى رسم صورة قاتمة ومفزعة لأخلاق اليهود وطباعهم :

فقد كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والذل والهوان ، ولما نجاهم الله من كل هذا . وقبل أن تجف نعالهم من رطب قاع البحر الذى شقه الله لنجاتهم ، تمنوا أن يصنع لهم موسى صنماً يعبدونه :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ

(٣٦) المرجع السابق ٥١ - ٥٣ .

إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾[37]

وقبل الله توبتهم على إثم قلوبهم وفساد أمنياتهم ، ولكن لم يكد موسى عليه السلام يتركهم لتلقى الوحي الذى يهديهم ويحقق لهم السعادة ، حتى انتقلوا من التمنى إلى الفعل . فصنعوا بأيديهم عجلا وخروا له ساجدين :

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[38]

وما كادوا ينعمون برحمة الله ، حتى غلبت عليهم شكوكهم وطباعهم المادية ، فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى لك بعيوننا :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[39]

---

(٣٧) الأعراف ١٣٨ – ١٤١ .
(٣٨) الأعراف ١٤٨ – ١٤٩ .
(٣٩) البقرة : ٥٥ – ٥٦ .

ولكنهم لم يشكروا ، بل ولم يصبروا على الحرية التى منحها الله لهم بخلاصهم من استعباد فرعون ، مع قليل من التقشف ، فصرخوا فى وجه موسى وهارون « **ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر . إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع ، فإنكما أخر جتمانا إلى هذا القفر** »(٤٠) .

ورحم الله ضعفهم ، وفجر لهم من الأحجار عيوناً ، وأنزل عليهم المن والسلوى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾(٤١)

نعم ظلموا أنفسهم ، فكما لم يصبروا على البلاء لم يصبروا على النعمة . فلما شبعوا ورووا ملأ البطر نفوسهم فطلبوا الذى هو أدنى بالذى هو خير :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ

---

(٤٠) سفر الخروج ١٦ : ٢ - ٣ .
(٤١) الأعراف : ١٦٠ .

ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٤١)

وضربت عليهم الذلة والمسكنة التى ملكت قلوبهم على أبواب مصر التى وعدهم الله بها والتى فيها ما يشتهون . فما رأوا أهلها حتى قالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى

---

(٤٢) البقرة : ٦١ .

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٤٣)

وأخيراً دخلوا فلسطين . ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . فلم تزدهم النعمة إلا عتواً وفساداً ، فحاق بهم من الذل والهوان على يد الفلسطينيين مثل ما حاق بهم على يد المصريين ، ولما ضاقت عليهم أنفسهم بسوء ما كسبت وضاقت عليهم الأرض بالشر الذى صنعوه عليها ، ولاحت لهم نهايتهم ، فزعوا إلى نبى لهم ليول عليهم من ينتشلهم من قاع الرذيلة والهوان ، وعاهدوا الله على الطاعة والولاء . فلما اختار لهم الله المنقذ ، لم تصبر نفوسهم على الجدل والعناد ، فقالوا : ما هذا بملك ، إنه ليس أعزنا مالا ولا جاهاً ، ولما سفه نبيهم مقاييسهم المادية للأمور ، لم يقبلوا حتى يأتيهم بآية من الله تشهدها عيونهم وتطمئن بها قلوبهم ، ولما أيد الله من اختاره ملكاً عليهم بما طلبوا ، ساروا معه كارهين ، ولم يلبثوا من أول اختبار لعزيمتهم وصدقهم فى الجهاد أن سقطوا إلا القليل الذين آمنوا وصدقوا الله ما وعدوه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ

(٤٣) المائدة : ٢٠ – ٢٦ ، وانظروا سفر العدد ١٣ ، ١٤ .

مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[٤٢]

هذه بعض الصور التى ذكرها القرآن عن أخلاق اليهود واعتقاداتهم . نقدم بعدها صورة أخيرة رسمها « التلمود » الذى هو عندهم أكثر قداسة من التوراة ، يتضح فيها البعد النفسى والأخلاق والعقدى للشخصية اليهودية ، يقول التلمود :

« النهار اثنتا عشرة ساعة – فى الثلاث الأولى منها يجلس الله ، ويطالع الشريعة ، وفى الثلاث الثانية يحكم ، وفى الثلاث الثالثة يطعم العالم ، وفى الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت .

يندم الله على تركه اليهود فى حالة التعاسة حتى إنه يلطم ويبكى كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان فى البحر فيسمع دويها من بدأ العالم إلى نهايته . وتضطرب المياه وترتجف الأرض فى أغلب الأوقات فتحصل الزلازل .

---

(٤٤) البقرة : ٢٤٦ – ٢٤٩ .

خلق الله الشياطين يوم الجمعة حين خيم الظلام ، ولم يخلق لهم أجساداً ولا ملابس ، لأن يوم السبت كان قريباً ولم يكن لديه الوقت الكافى ليعمل كل ذلك .

تتميز أرواح اليهود عن باق الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أن الإبن جزء من أبيه ومن ثم كانت أرواح اليهود أعز على الله من باق الأرواح .

لا يدخل الجنة إلا اليهود . أما النار فهى مأوى الكفار ، ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين .

الفرق بين درجة الإنسان والحيوان ، كالفرق بين اليهود وباق الشعوب ، والدنيا بما فيها ملك لليهود ، ولهم عليها حق التسلط ولهم مطلق التصرف فى كل شئ .

يسمح بغش غير اليهودى وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش ، ولكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودى شيئاً فلا تخدعه ولا تغشه .

إن الله لا يغفر ذنباً ليهودى يرد لأمى ماله المفقود وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب ، غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا .

لا يخطئ اليهودى إذا انتهك عرض الأجنبى ، فكل إمرأة ليست من بنى إسرائيل بهيمة . وكل من ليس يهودياً أجنبى . وكل عقد نكاح لغير اليهود فاسد ، وإذا زنى اليهودى بامرأة مسيحية فلا يكون قد ارتكب محرماً ، بل إن لليهود الحق فى اغتصاب غير اليهوديات ، ليس للمرأة اليهودية أن تبدى أية شكوى إذا زنى زوجها بأجنبية فى المسكن المقيم فيه مع زوجته .

على اليهودى أن يؤدى عشرين يميناً كاذبة ولا يعرض أحد إخوانه اليهود لضرر ما .

على اليهود أن يعاملوا المسيحيين كحيوانات دنيئة غير عاقلة .

الخارجون عن دين اليهود خنازير نجسة . وخلق الله الأجنبى على هيئة إنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم .

ليس من العدل أن يشفق اليهودى على أعدائه ويرحمهم .

غير مصرح لليهودى أن يوجه السلام إلى الكافر إلا إذا كان يخشى ضرره أو عداوته . والنفاق جائز ولا بأس من ادعاء محبة الكافر إذا خاف

اليهودى من أذاه[٤٥] » .

هذه هى أخلاق اليهود تقوم على ركيزة أساسية ، وهى المادية المفرطة وحب الذات . وهذا هو الأساس لكل الرذائل التى اتسمت بها أخلاقهم سواء مع أنبيائهم أو فى أنفسهم ، أو مع غيرهم من الشعوب الأخرى .

– فمع أنبيائهم : كان الإيذاء والقتل والشك والعصيان والميل إلى الوثنية والالحاد وتحريف شريعة الله .

– وفى أنفسهم : الجبن والقلق والتردد والاحساس بالغربة والخوف من الآخرين .

– ومع غيرهم من الشعوب : الحقد والكراهية والاستعلاء بالباطل والتربص وعدم المسالمة .

---

(٤٥) سياسة الاستعمار والصهيونية ص ٧ هامش ٥ ، حسن صبرى الخولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

تحريف كتبهم المقدسة :

والواقع أن هذه مسألة قد انتهى الجدل فيها بين الثقاة من العلماء والباحثين ، ولم يعد بينهم خلاف يذكر حول تحريف اليهود لكتبهم المقدسة ، والتفاوت بينهم ، إنما هو من حيث الكم والكيف فيما يقدمونه من أدلة ، ونحن فيما نقدمه هنا من أدلة . ليس إلا إضافة أو تذكير بما أقاموه من أدلة :

١ - تضخم التوراة بفعل اليهود :

وسنعتمد فى هذا على التوراة نفسها ، فالتوراة التى بين أيدينا الآن . لا يمكن أن تكون كلماتها بنفس الكم الذى نزلت به ، فنحن نرى أسفارها الخمسة تملأ ٣٧٩ صفحة بالحروف الصغيرة ، بينما التوراة نفسها تحدد لنا الصورة التى نزلت بها ، بشكل لا وجه فيه للمقارنة بين حجمها الحالى ، وحجمها الذى نزلت به ، حيث يذكر سفر الخروج ، أن موسى تلقى التوراة مكتوبة على لوحين من حجر :

« وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم »[٤٦] .

« فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هناك كانا مكتوبين »[٤٧] .

وقد يتبادر إلى الذهن ، أنه لا مانع عقلاً من أن يكون اللوحان من العظم والإتساع ، بحيث يملأ المسطر عليها ٣٧٩ صفحة من الورق كما نراها الآن .

ولكن التوراة نفسها تدفع هذا الاحتمال حين تحدد حجم اللوحين بالتابوت الذى أمر الله موسى أن يصنعه ويحفظ فيه التوراة :

---

(٤٦) ٢٤ : ١٢ .
(٤٧) ٣٢ : ١٥ .

« تابوتاً من خشب طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف ، وإرتفاعه ذراع ونصف ، وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك »[٤٨] .

وقد يرد على الذهن إحتمال أن ما كتب على اللوحين ، بلغت حروفه حداً من الصغر ، بحيث إذا نقلت كلماته على الورق ، ملأت صفحات عديدة ، ونحن نرى الآن القرآن الكريم يكتب فى صفحة واحدة لا تزيد كثيراً عن ذراع فى ذراع .

ومرة أخرى نجد التوراة نفسها تدفع هذا الإحتمال ، حين تحدد لنا الزمن الذى يستغرقه كتابتها وقراءتها ، بحيث لا يبقىٰ لدينا أدنى شك فى تقدير حجمها ، وأنها لا تزيد عن كلمات لا تملأ أكثر من بضع ورقات .

« وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلاً .. فى عيد المظال .. تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل فى مسامعهم »[٤٩] .

ويحدد لنا سفر يشوع الزمن بدقة أكثر ، حين يذكر أن يشوع نقش نسخة من التوراة على الحجر وتلاها على الشعب فى جلسة واحدة :

« وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى . وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة ، البركة واللعنة ، حسب كل ما كتب فى سفر التوراة لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يقرأها يشوع قدام كل جماعة إسرائيل »[٥٠] .

ولكن قد يرد إحتمال أخير : أليس من الجائز أن يكون موسى عليه السلام قد تلقى مع اللوحين نصوص أخرى ، وأن المجموع هو ما يطلق عليه التوراة .

ولكن هذا الإحتمال الأخير نجد ما يرده من سفر الملوك الأول حيث يذكر بوضوح أن سليمان حين نقل التابوت إلى المعبد الذى بناه ، لم يكن فيه سوى اللوحين :

« لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر »[٥١] .

---

(٤٨) خروج ٢٥ : ١٠ ؛ ١٦ .
(٤٩) التثنية : ٣٤ .
(٥٠) سفر يشوع : ٩ .
(٥١) ٨ : ٩ .

وأخيراً فإن التوراة تعين لنا على لسان موسى عليه السلام قبل موته . مضمون التوراة ، بأنه عبارة عن الوصايا العشر ، وهى فقط ما كتب فى اللوحين :

« ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم إسمع يا إسرائيل الفرائض والأحكام التى أتكلم بها فى مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها فقال أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً .. لا تطق باسم الرب إلهك باطلاً .. لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك زور ، ولا تشته إمرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك ، هذه الكلمات كلم بها الرب كل جماعتكم فى الجبل من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم ولم يزد وكتبها على لوحين من حجر وأعطانى إياها »[٥٢] .

كل هذا يرجح إن لم يكن يؤكد أن التوراة التى كتبها موسى فى اللوحين لا تعدو أن تكون الوصايا العشر ، وهذا هو ما يتفق مع العقل ، ومع النصوص التى أوردناها من التوراة نفسها ، خصوصاً إذا علمنا أن « سفر » تعنى فى اللغة العبرية ورقة أو صحيفة ، أما هذا الحشد أو التضخم الذى عليه التوراة الآن إنما هو من فعل بشرى .

٢ – فقد التوراة أو انقطاع السند :

فإنه فضلاً عما أشرنا إليه من استيلاء الفلسطينيين على التابوت المقدس ، فإن المعبد الذى بناه سليمان عليه السلام ووضع فيه تابوت الرب الذى لم يكن به سوى اللوحين ، تعرض للنهب والتدمير مرتين بعد سليمان .

كانت المرة الأولى على يد المصريين فى عهد رحبعام بن سليمان ، يقول سفر الملوك الأول [١٤ : ٢٥] : « **وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان** » .

والدليل على فقد التوراة فى هذا التدمير ، أنه لم يرد عنها ذكر حتى أعلن الكاهن حلفيا فى عهد الملك « يوشيا بن أمون » الذى ملك دولة يهوذا ٦٢٩ –

---

(٥٢) التثنية ٥ : ١ – ٢٢ .

٥٩٨ ق م فى الفترة التى كانت تلفظ فيه أنفاسها الأخيرة ، بسبب ما كانت فيه من إلحاد وزندقة ، أنه وجد التوراة ، وهذا الإعلان من حلفيا معناه أنها كانت مفقودة ، والباحثون يشكون فى صدق حلفيا ، لأنه لا يعقل أن تكون التوراة موجودة فى أورشليم كل هذا الوقت دون أن يعثر عليها أحد قبله ، ولهذا فهم يرون أن هذه التوراة من وضع حلفيا نفسه ، إعتمد فى كتابتها على الأساطير والقصص التى كان يرددها الإسرائيليون وشيوخهم ، أما التوراة التى نزلت على موسى فإنه لم يبق منها سوى الوصايا العشر ، والذى ساعد على بقاء تلك الوصايا سهولة حفظها وتناقلها شفاها بين الأجيال(٥٣) .

أما التدمير الثانى ، فكان على يد بختنصر الذى دمر الهيكل تدميراً تاماً وأحرق أورشليم بكاملها ، وهو التدمير الذى لم تقم لليهود بعده قائمة وهذا هو وصف سفر أخبار الأيام الثانى ٣٦ : ١١ – ٢٠ لما حدث : « **وملك – أى نبوخذ ناصر ملك بابل – صدقيا على يهوذا وأورشليم ، كان صدقياً ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك .. وعمل الشر فى عينى الرب إلهه ولم يتواضع أمام إرميا النبى من فم الرب ، وتمرد أيضاً على الملم نبوخذ ناصر .. حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذى قدسه فى أورشليم .. فكانوا يهزءون برسل الله ورذلوا كلامه ، وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب .. فأصعد عليهم ملك الكادانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب ، بل دفع الجميع بيده وجمع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار فكانوا له ولبنيه عبيداً** » .

٣ – العهد القديم من اختيار الأحبار :

فهذه الأسفار التى يحتويها العهد القديم بصورتها الراهنة ، اختارها الأحبار بعد الأسر البابلى من بين عدد هائل من الكتب المتعارضة والتى كانت كلها تنسب إلى موسى وأنبياء بنى إسرائيل ، فقد حدث بعد تدمير دولتهم فى فلسطين ، وتفرق من نجا منهم من بطش بختنصر فى أنحاء متفرقة أن خشى أحبار اليهود وزعماؤهم من ضياع الإسرائيليين كشعب وذوبانهم فى الشعوب التى لجأوا إليها ، فعقدوا

(٥٣) مقارنة الأديان – اليهودية ص ١١٢ وما بعدها .

مجمعاً لهم بالاسكندرية سنة ١٣٠ ق م قام بجمع ما توفر له من التراث الدينى وقننوه دون تمحيص ثم ترجموه إلى اللغة اليونانية ، للمحافظة على تاريخ اليهود ووحدتهم ، ولكن الصدوقيين والسامريين لم يعترفوا مما أقره المجمع سوى بالأسفار الخمسة ، التى نسبت إلى موسى ، ثم عقد مجمع آخر بفلسطين سنة ٩٥ بعد الميلاد تقريباً لمراجعة التراث الذى جمعه مجمع الاسكندرية وتقنينه ، ولكن المجمع انشق على نفسه فقد رفض الفريسيون أى نص باللغة اليونانية ، ولم يعتبروا مقدساً سوى الأسفار المكتوبة باللغة العبرية ، أما أحبار الاسكندرية ، فقد قبلوا كثيراً من الأسفار التى لم يقبلها الفريسيون وأضافوه إلى الأسفار المقدسة ، وبهذا أصبح لدى اليهود نسختان مختلفتان من الكتاب المقدس ، فضلاً عن أن كثيراً من اليهود لم يعترفوا من كل هذا سوى بأسفار موسى الخمسة ، كما أن الأحبار الذين اعتمدوا الأسفار المقدسة ، لم يكونوا فوق مستوى الشبهات ، ولم يكونوا كفئاً لمثل هذا العمل الخطير ، فقد كان من بينهم كما يقول اسبنوزا ، « **كفرة فاسقون وصلوا إلى منصب الحبروية بوسائل إجرامية ، وكان لهم مع ذلك طبقاً لوصايا الكتاب سلطة مطلقة فى تفسير الشريعة** »[٥٤] ويعضد تلك الشهادة لاسبنوزا ما عرضناه عن أخلاق اليهود .

٤ – النقد الموضوعى للمتن

وإذا نظرنا إلى نصوص التوراة نفسها ، اتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أنها من وضع بشرى أو اختلط فيها كلام الوحى بكلام البشر ، فأى قارئ لها سيدرك من أول وهلة أنها لا يمكن إلا أن تكون مملاة بروح إنسانية وأنها لا يمكن أن تكون من إملاء إلهى ، أو أنها على الأقل قد أصابها تحريف شديد يخرجها عن أن تكون وثيقة مقدسة يعتمد عليها كوحى منزل من الله .

وإليكم بعض الملاحظات التى يتضح منها هذا القول :

– لا تتحدث التوراة عن موسى بضمير الغائب فحسب ، وإنما تعطى عنه شهادات عديدة مثل : « **كتب موسى هذه التوراة – تحدث الله مع موسى – كان الله مع موسى وجهاً لوجه – وكان موسى رجلاً حليماً جداً أكثر من جميع الناس – فسخط موسى على وكلاء الجيش – موسى رجل الله – فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ولم يعرف**

---

(٥٤) رسالة فى السياسة واللاهوت ص ٢٦٢ ، وانظر هامش ٢ ص ٣٥ .

إنسان قبره إلى هذا اليوم – ولم يقم بعد نبى فى بنى إسرائيل مثل موسى .. »[55]

يتضح من هذا الأسلوب أن موسى لم يكتب هذا الكلام بل كتبه شخص آخر متأخر عنه بزمن طويل قد يصل إلى عصر عيسى عليه السلام ، إذ أن الحكم بأنه لم يأت بعد نبى فى بنى إسرائيل مثل موسى ، لا يتأتى إلا لشخص يستعرض تاريخ بنى إسرائيل إلى نهايته ، ولا سيما أنه يقول عن موسى : ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا . فمن كان قريب العهد بموت موسى لا يقول هذا الكلام .

– المبالغة الشديدة التى تتنافى مع السنن الطبيعية ، فقد جاء مثلاً فى سفر التكوين ٤٦ : ٢٦ « **جميع نفوس بنى يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون** » بينما يذكر سفر العدد أن عدد الإسرائيليين كان بعد خروجهم من مصر مباشرة أكثر من الخمس مليون نسمة ، فقد جاء فى الإصحاح ١ : ٤٤ – ٤٨ « **فكان جميع المعدودين من بنى إسرائيل حسب بيوت آبائهم من إبن عشرين سنة فصاعداً .. كان جميع المعدودين ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين ، وأما اللاويون حسب سبط آبائهم فلم يعدو بينهم** » أما « **جميع المعدودين من اللاويين الذين عدهم موسى وهارون حسب قول الرب بعشائرهم كل ذكر من ابن شهر فصاعداً اثنان وعشرون ألفاً** »[56] .

ومعنى هذا أن الإسرائيليين تكاثر عددهم فى قرنين من الزمن من سبعين فرداً إلى أكثر من خمسة ملايين نسمة ، أى أنه تضاعف عددهم أكثر من سبعين ألف مرة فى مدة لا تزيد عن قرنين ، وهذا أمر لا يمكن تصوره ولا يتفق مع السنن الطبيعية ، إذا علمنا أن عدد اليهود الآن وبعد مرور الثلاثة آلاف سنة تقريباً من خروجهم من مصر لم يبلغ ضعف هذا العدد .

– يكفى أن نعرض مقارنة بسيطة بين القرآن الكريم وأسفار اليهود فى مجال الحديث عن الأنبياء والرسل ، لندرك الفرق الشاسع بين لغة

---

(٥٥) سفر التثنية ١٣ ، ٣١ ، ٣٤ – وسفر العدد ١٢ ، ١٣ .
(٥٦) سفر العدد ٣ : ٣٩ .

الوحى ولغة البشر التى تتناقض مع كل القيم والمثل الإلهية :

فمثلاً بينما يقول القرآن الكريم عن هارون عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٥٧)

نجد التوراة التى تعترف بهارون نبياً ، تجعل منه رجلاً وثنياً يصنع بيديه لهم الأوثان ويشترط معهم فى عبادتها كما سبق ذكره ، أى تناقض أكثر من هذا ؟!

وبينما يقول القرآن الكريم عن داود عليه السلام :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٥٨)

تجعل أسفارهم التى تعترف به نبياً رجلاً دنئ النفس فاسقاً ، يقول سفر صموئيل الثانى ١١ : ٢ - « **وأما داود فأقام فى أورشليم وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت**

---

(٥٧) الصافات : ١١٤ - ١٢٢ .

(٥٨) ص : ١٧ - ٢٠ .

الملك ، فرأى من على السطح إمرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر .. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها .. وحبلت منه » ، ثم يحكى السفر كيف أن داود توغل فى الإثم فعمد إلى قتل زوج المرأة خيانة وغدراً لأجل أن يضمها إلى حريمه ، ثم أنجبت له سليمان عليه السلام.

أما سليمان عليه السلام الذى يقول القرآن عنه :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[59]

نجد أسفارهم تجعل منه رجلاً فاسقاً ملحداً لا هم له إلا الانغماس فى الشهوات وتجعل من بيته مباءة للفسق والفجور والإلحاد ، يقول سفر الملوك الأول ١١ : ١ - ٦ « **وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبع مئة من النساء والسيدات وثلاث مئة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيدونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماماً** » . وعليكم بأنفسكم أن تدركوا إلى أى حد أصاب التحريف كتب اليهود المقدسة .

شهادة سبنوزا :

وأخيراً فإن كثيراً من المؤرخين اليهود والمسيحيين والمسلمين متأكدون الآن أن التوراة التى بين أيدينا الآن ليست توراة موسى وإنما من وضع اليهود أنفسهم بعد موت موسى عليه السلام بقرون عديدة ، واجتهاداتهم الآن تدور حول تحديد واضع هذه التوراة والوقت الذى كتبت فيه ، ويكفينا من بين هؤلاء شهادة الفيلسوف اليهودى سبنوزا الذى عرف بعلمه وتدينه فهو من هذه الجهة غير متهم بالجهل أو التعصب ، يقول سبنوزا بعد تقديم كثير من الأدلة والملاحظات على تحريف التوراة : « من هذه الملاحظات كلها يبدو واضحاً وضوح النهار أن موسى

---

(٥٩) ص : ٣٠ .

لم يكتب الأسفار الخمسة بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة »[٦٠] .

ثم يستمر سبنوزا فى نقد باقى الأسفار وينتهى إلى أن جميع الأسفار التى يحتويها العهد القديم ، كتبها مؤرخ واحد أراد أن يروى تاريخ اليهود القديم منذ نشأتهم الأولى حتى تدمير أورشليم على يد بختنصر ، فالمتصفح لهذه الأسفار من أولها إلى آخرها يتبين أنها تتسم بثلاث خصائص رئيسية :

وحدة الهدف والأسلوب فى جميع الأسفار .
الربط فيما بينها بطريقة واحدة .
تأليفها بعد الحوادث المروية بقرون عديدة .
كل هذا يؤكد أن مؤرخاً واحداً هو الذى كتبها .

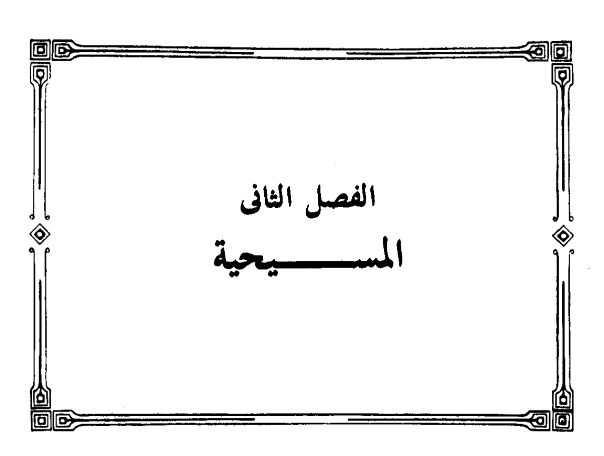
أما من يكون هذا المؤلف أو الكاتب ؟ فإن سبنوزا يرجح أنه يكون « عزراً » ، الذى عرف عنه عكوفه على دراسة الشريعة وإلمامه التام بالتراث الدينى لليهود ، كما أنه الذى تولى أمرهم بتفويض من قورش ملك الفرس بعد الأسر البابلى[٦١] .

وأعتقد أنه بعد شهادة سبنوزا اليهودى ، وما قدمنا ، من أدلة وهى قليل بالنسبة لما قدمه المؤرخون والباحثون فى هذا المجال ، لم يبق لدينا ريب فى تحريف الكتب المقدسة لليهود بشكل كامل ، وإن كان قد بقى فيها شئ من كلمات الوحى فإنه لا يمكن تمييزها بيقين وبهذا يسقط الاعتماد عليها كوثائق دينية يعتد بها . بمعنى أنه لا يمكن اعتماداً على العقل تمييز الملة فيها عن النحلة أو الوحى من الرأى ، إلّا بالاعتماد على مصدر آخر وهو القرآن .

---

(٦٠) رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٢٧٤ .
(٦١) انظر رسالة فى اللاهوت والسياسة الفصل الثامن ص ٢١٥ وما بعدها .





الفصل الثانى

المسيحية



نشأتها وتطورها

الكلام فى المسيحية[1] لا ينفصل من حيث الأصول والمصادر عن القول فى اليهودية للصلة التاريخية والدينية الوثيقة بينهما ، وإن كان اليهود لا يعترفون بالمسيحية ، كتاباً ونبوة وعقائد وشعائر ، فإن المسيحية من حيث كتبها ورسلها لها نسب ببنى إسرائيل وكتبهم ، ويعنى هذا أن القول فى المسيحية ما هو إلا إمتداد للقول فى اليهودية ونقدنا للتوراة متنا وسنداً يمتد أثره بالضرورة إلى المسيحية من حيث الملة والنحلة ، ما دامت المسيحية تجعل العهد القديم جزءاً من ثرائها والتربة التى تمتد إليه جذورها والمرجع الذى تستند إليه فى عقائدها ورموزها وطقوسها ، إلا إن المسيحية كما هى الآن ، وإن كانت تعترف بأبوة التوراة من الناحية الرسمية ، فإنها من حيث الواقع تعتبر نطفة – إن جاز لنا هذا التعبير – تكونت من مياه كثيرة ، وتقلبت بحسب أطوارها فى أرحام متعددة – أورشليم ، والإسكندرية ، وطرسوس ، وإنطاكية ، وأثينا – حتى تم بناؤها وميلادها فى روما وقد أصبحت خلقاً آخر ، ليس له من الشرق إلا عروق متصلة به تمده بدمه وفكره وعقائده مما يضمن له البقاء والحياة ، أما الغرب فرحم تربت فيه وأمدها بغذاء شكّل بنيانها وأكمل أطوارها ، بل لا نعدو الصواب إذا قلنا إن المسيحية كانت فى نشأتها وتطورها كائناً عجيبا تفردت عن الكائنات الحية بأن لها أكثر من أب وأكثر من رحم ، فلا هى بالشرق وحده ولا بالغرب وحده ، وإنما بهما معا ، بحيث لو نزعنا عروق الحياة التى تصلها من الشرق أو الغرب لم يبق منها شئ وتلاشت ككائن هبائى إن جاز لنا هذا التعبير ، فرغم تضخمها وتورمها لا تحمل فى ذاتها أجهزة حياتها التى تضمن لها البقاء والإستمرار ، فهى ظل لا حقيقة ومرآة لا واقع ومركب ليس له عناصر ، وخليط من أوهام وخيالات لا صورة لها ولا حدود .

---

(١) نذكر بأن دين عيسى عليه السلام ورسالته هى الإسلام ، أما تلك التسمية ، فتسمية وضعية متأخرة شاع استعمالها بعد أن تحولت رسالة عيسى إلى دين جديد مغاير فى القرن الرابع تقريباً – وانظر فى ذلك – شارل جنيير – المسيحية نشأتها وتطورها الفصل السابع .

فنحن إذا نظرنا فى أقدم وثائقها نجدها تنفرد عن سائر النصوص الأخرى بضعف السند والاضطراب وعسر التحقيق ، ولا أدل على ذلك من أن : « البحث الدقيق الذى دار فى السنوات الأخيرة على أساس الوثائق الأصلية لم يثبت سوى تصوير حياة عيسى فى شئ من اليقين والتثبت ، ويجب علينا أن ننظر إلى الكتب التى تدعى سرد سيرته على أنها مؤلفات تستند إلى الكثير من التحكم والنزعات الذاتية »(٢) « فتصفح الأناجيل وحدها يكفى لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يحتم القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية فى كتابتها ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل الحوادث عليهم ، بل على العكس من ذلك اتبع كل هواه وخطته الخاصة فى تنسيق وترتيب مؤلفه »(٣) . « وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز فى وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ولم نعد نملك تلك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته فى دقة »(٤) .

أما إذا نظرنا إليها من منظور تاريخى بحت اعتماداً على أكثر الأخبار إتفاقاً فى المصادر التاريخية الأخرى ، نجد أنها بدأت بظهور شخص يدعى يسوع الناصرى بإقليم الجليل شمال فلسطين إبان حكم الإمبراطور الرومانى « ثيبريوس » يدعو قومه من بنى إسرائيل ، بوصفه رسولا من الله إليهم ، يدعوهم إلى البر والتقوى وإحياء أحكام الناموس الذى أنزل على موسى ، ومبشراً بقرب قيام مملكة الله التى لن يكون فيها مكان للفاسقين ، وقد استجاب إليه والتف حوله بعض الأنصار المخلصين من قومه . ولكن حادثاً عنيفاً أنهى حياته على الأرض ، غير أن عمله لم ينته بانتهائه ، بل واصل أتباعه التبشير بدعوته ، ولكن لم يمض القرن الأول إلا ونجد أن شخصه قد احتل مكان الصدارة فى دين جديد أخذ يمتد وينتشر لينتهى بتميزه التام بل وعداؤه الواضح للدين الذى أتى به عيسى نفسه داعياًله ، ويقوى هذا الدين الجديد وتترسخ دعائمه حتى يصبح فى القرن الرابع امبراطورية غربية تقوم باسم المسيح وتسمى المسيحية وتمد ظل كنيستها وسيادتها بامتداد أملاكها ونفوذها على الأرض .

---

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٢٦ - شارل جنيبر - ترجمة عبدالحليم محمود - المكتبة العصرية - بيروت .

(٣) السابق ص ٢٨ .

(٤) السابق ص ٢٩ .

وهكذا فإن النظر فى المسيحية من حيث نشأتها الأولى ، ومن حيث تطورها وما انتهت إليه ، يجعلنا أمام صورتين مختلفتين فى كل شئ ، اللهم إلا فى الرابط بينهما وهو شخصية عيسى عليه السلام ، تلك الشخصية التى استغلت أسوأ استغلال على مر التاريخ الدينى كله : فمسيح اليوم إله ، ومسيح الأمس بشر ، مسيح اليوم يشرع ويقنن ويحل ويحرم ويذل ويعز ، ومسيح الأمس رسول مبلغ عن الله وداع إلى الله بإذنه لا يملك من أمره شيئاً أكثر مما يملك البشر من أمرهم ، مسيح اليوم خالق معبود ، ومسيح الأمس عبد مخلوق ، كتب الأمس تتكلم عن جهاد المسيح وآلامه فى سبيل دعوته إلى الله ، وكتب اليوم تتكلم عن المسيح المنتصر الذى يجب الإخلاص فى عبادته وتأليهه ، كتب الأمس تتكلم عن المسيح المحب الساجد على الأرض خشوعاً لخالقه ، وكتب اليوم تتكلم عن المسيح الجالس على كرسيه فى السماء وعلى رأسه تاج الملك وبيده صولجان الهيمنة على ملكوت الأرض والسماء ، وإذا أخذنا فى إحصاء الفوارق بين مسيح الأمس ومسيح اليوم لن ننتهى ولن نستطيع إلا إذا استطعنا إحصاء الفوارق بين الله والإنسان ، وتلك الفوارق بعينها هى محتوى التراث أو الكلام المسيحى كله وما عداه من ذلك التراث فليس إلا نضحاً وإفرازاً للتحليل أو الجدل فى تلك الفوارق ، وإن هو إلا حصيلة جدل مستمر وتفسير وتبرير وتعليل عن علاقة اللاهوت والناسوت فى شخصية عيسى ، ومن هنا كانت أكثر الأديان الثلاثة جدلاً وكلاماً ودورانها حول مشكلة واحدة لا تكف ولن تكف عن الدوران حولها لأن حياتها فى ذلك الدوران الذى لو توقف لتوقف معه قلبها وأنفاس حياتها ، فإنه إذا لم يكن لعلماء بيزنطة شئ يتكلمون فيه غير البيضة والدجاجة فإنه ماذا يبقى من المسيحية لو حذف منها الكلام فى الإله الإنسان أو الإنسان الإله أى المسيح ؟! ربما بقى منها اسمه وبعض الفضائل التى نقلت عنه وهى أشياء وإن كانت صحيحة إلا أنها لا تقوم بها ملة ولا تبنى لها كنسية ولا تشيد عليها عروش وممالك ، وهنا يحق لنا أن نقول مرة أخرى : إنه لولا القرآن الكريم ما بقى من عيسى عليه السلام ورسالته شئ يدل عليه بيقين لا ملة ولا نحلة ، فكل ما قيل عنه خارج ما قاله القرآن كالعهن المنفوش عليه من علماء المسيحيين أنفسهم شكوك تكاد تجعله كعصف مأكول أو أثر بعد عين ، وليس فيما نعرضه عن المسيحية من خلال وثائقها الرسمية إلا نموذج فقط لتوضيح هذا الجانب ، وسأكتفى من تلك الوثائق بما يحقق الغرض ولن أنساق وراء علماء تاريخ الأديان من المسيحيين فى كل ما قالوه ، ولن أشاركهم حماسهم فى السخرية والهدم ، لأن ما أعرضه سيكون أقل منه كافياً فى تحقيق الغرض العلمى الذى نحن بصدده ، دون تعصب أو تحزب

وهو بيان المللة من النحلة فى المسيحية كأحد الأديان السماوية الكبرى تلك الديانة الذى يشكل الإيمان بكتابها ورسولها ركناً من أركان إيمانى .

وإن كان هذا غرضى فإنه لن يؤثر فيه بل ربما يدعمه كلمة أجدها ضرورية كمقدمة للحديث عن المسيحية ، أوجهها فى لطف ومحبة إلى صديقى الراهب الشاب العالم الذى كان لى حظ التمتع بضيافته فى أحد أديرتنا العتيدة بوادى النطرون والذى وهب نفسه وشبابه للإيمان فاعتزل الناس بحثاً عن جذور هذا الإيمان وأصوله فى سكون صومعته ، فلن يسوءه كما لن يسوء كل من يريد من إخواننا الرهبان العلماء الشبان من أمثاله ، أن يؤسس إيمانه على الحق والتقوى والخير والمحبة وما ينتهى إليه هذا الفصل من نتائج ، ولتعلم يا صديقى أننى سأكون أول من يسعده تصحيح أى خطأ فيها ، بشرط أن يكون هذا التصحيح بأدلة صحيحة فى الموضوع والهدف ، فالجدل والحوار من أجل الحق والخير أمر محمود يدعو إليه كل دين صحيح وعقل مجرد ، لأن علم الحق والعمل به رسالة الله إلى الناس ، أما الجدل من أجل النفس ونصرة الرأى والإعتقاد ، فهو وإن كانت له وظيفة ، تناقشا فى دورها التربوى والاجتماعى وهو ما يمكن تبريره فى حدود تلك الوظيفة ، إلا أنه لا يمكن فى تقديرى تبريره علمياً وأخلاقياً أمام الحق والخير أو فى مقام المعرفة ، ولذلك فجدل من هذا النوع لا أصلح أن أكون طرفاً فيه ونداً له ، فما الذى سيضيفه فى تقديرك نوع من هذا الجدل ، أكثر مما أضافه علماء الكلام اليهودى أو المسيحى أو الإسلامي ، إنه لن يكون إلا تكثيفاً للظلمة التى لفها علماء الكلام حول النور الإلهى فى تلك الأديان ، وما أود قوله لك هو ما قاله أناتول فرانس : « لا يعنينى سرورك بما شاهدت ، وإنما يكفينى أن يكون ما شاهدت هو الحق ، فليس من هم العلم أن يستثير السرور أو يبعث على عدم الرضا ، إنه غريب عن العواطف البشرية »[٥] وستظل غايتى معك

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٦]

---

(٥) مقدمة – المسيحية نشأتها وتطورها .
(٦) آل عمران : ٦٤ .

وسيظل قلبى مهما اختلفت بيننا الآراء والإجتهادات ، محب لك ولكل إخوانك من الرهبان العلماء فى كل أديرة مصر المحروسة بإذن الله ثم بإيمان أهلها ومحبتهم ومودتهم ، لأن وجدانى نحوك قد صاغه قوله تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[7]

والآن ما هى المسيحية ؟

(٧) المائدة : ٨١ .

المسيحية : نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وتسمى **النصرانية** نسبة إلى بلدة الناصرة بفلسطين ، موطن عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته المبعوث نبياً ورسولاً إلى بنى إسرائيل ، كلف بالرسالة عندما بلغ الثلاثين من عمره ، وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام على قول الشهرستانى[٨] .

رأينا فى الفصل السابق كيف حرف اليهود شريعة موسى ، لخدمة أغراضهم وأهوائهم ، ووصل التفكير المادى بهم إلى حد إنكار الأصول الدينية من البعث وخلود الروح ، مما كان له أثر على حياتهم الدينية والأخلاقية فبعث عيسى عليه السلام إليهم وقد طغت الأهواء والشهوات عليهم ، وعم الفساد عقيدتهم وأخلاقهم حتى اتخذوا إلههم هواهم ، فكانت دعوة عيسى لهم كما حددها القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[٩]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[١٠]

وقد تحدث القرآن فى آيات كثيرة عن عيسى ، ومولده ، ورسالته ، وعداء اليهود ومحاربتهم دعوته ، خصوصاً سورة آل عمران ، والمائدة ، ومريم . والتى تشكل السيرة الكاملة لعيسى عليه السلام من حيث نسبه وميلاده ورسالته ونهايته ، كما توضح أصول المسائل والمشاكل العقدية والكلامية التى أحاطت بشخص عيسى ورسالته ، وسأعرض تلك النصوص بحسب ترتيب سور القرآن دون تدخل منى فى سياق هذا الترتيب ، وبعدها نستخلص النتائج اللازمة .

---

(٨) انظر الملل والنحل ٢٠١/١ .
(٩) المائدة : ٧٢ .
(١٠) آل عمران : ٥١ .

تحدث القرآن عن عيسى عليه السلام فى اثنتى عشرة سورة منه على النحو التالى :

– **سورة البقرة :**

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ
عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ
قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۚ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ
وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۚ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ
أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۚ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا
ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۚ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۚ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۚ
قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۚ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا
بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۚ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ
مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ

ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾
وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ
ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾
إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ
وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۚ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ
وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ أَنِّىٓ
أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ
وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ

وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ
قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا
مَعَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ
اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَٰتِ وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ
قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ

فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا
مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ
وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

– النساء :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا
عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ
مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ
مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

* إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ
إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ
وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ
عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾
رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا
تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ
أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ
خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا
لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ
إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ
أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ
فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ
قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ
وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ
وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ
ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن
يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ
مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ
إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ

كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ
وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن
سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ
وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ۞

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ
ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ
عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ
وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ
إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾
وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ

بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ
أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾
قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ
عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا
مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ
ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ
فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ
وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ
ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

– الأنعام :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

– التوبة :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ وَٱذۡكُرۡ

فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ
مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾
قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠
رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ
وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ
وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞فَحَمَلَتۡهُ
فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ
قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ
أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ
تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ
مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ
إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا
فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ
بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾

قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

– الأحزاب :-

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

– الشورى :

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

- الزخرف :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

- الحديد :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

- الصف :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذه هى كل الآيات التى ترسم لنا صورة كاملة عن عيسى عليه السلام ، وبظاهر تلك الآيات وبعيداً عن التأويل نستطيع أن نقرر المسائل الآتية :

- عيسى عليه السلام رسول الله إلى بنى إسرائيل ، وكتابه الإنجيل ومصدق لما بين يديه من التوراة .
- ولادته من غير أب ، وكلامه فى المهد ، إرهاص بنبوته ، والمعجزات التى أتى بها من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالغيب ، من فعل الله وبإذنه ، وكلها آيات يساند بعضها بعضاً وتتجه إلى غاية واحدة وهى الدلالة على صدق دعواه فى رسالته .
- عيسى وإن كان رسولاً له مكانة بارزة بين الأنبياء والرسل ، لا يعدو أن يكون بشراً كسائر البشر وعبد الله كسائر عباده ، لا يملك لنفسه ولا لغيره من الله شيئاً ، وهذه المعانى تعتبر خطا رئيسياً فى كل الآيات التى تكلمت عن سيرته والتى تؤكد تلك النسبة البشرية لعيسى حين تدعوه فى معظم المناسبات التى تحدثت عنه فيها بأنه « ابن مريم » .
- يتصل نسب عيسى عليه السلام بإبراهيم عليه السلام من جهة أمه مريم البتول إبنة عمران التى اشتهرت بين قومها بالطهر والعفاف والإيمان والتقوى ونبل النسب وقد راعها كأى فتاة طاهرة عفيفة بشارة الملك لها بابن لها من غير أب ، حتى تمنت الموت لولا إيمانها وثقتها أن الله لن يضيعها .
- عيسى عليه السلام ، مثله كبقية الرسل والأنبياء ، دينهم واحد ورسالتهم واحدة فى أصولها وهى الإسلام ، والاختلاف بينهم إنما فى بعض الأحكام العملية ، وكل منهم امتداد لدعوة الآخر مصدق لما قبله من الرسل والكتب .

- عيسى عليه السلام كان آخر الرسل من بنى إسرائيل ولكنه بشر برسول يأتى من بعد اسمه أحمد .

- القول ببنوة بعض البشر لله ، مقالة قديمة تسربت إلى عقائد اليهود من عقائد الوثنيين ، وقولهم عزيز ابن الله أخذوه عن هذه العقائد الوثنية .

- كان الإسرائيليون فى عيسى عليه السلام ومعجزاته ثلاثة أصناف :
صنف : آمن به عبدالله ورسولاً منه إليهم ، أنزل عليه الإنجيل مصدقاً للتوراة ومصححاً لتحريفات اليهود عقيدة وسلوكاً ، وعلى رأس هؤلاء المؤمنين الحواريون ، وهذا الصنف اعتبر ما أتى به عيسى من معجزات دلالة صدق وتأييداً من الله له فى دعواه .
وصنف : كفر به وكذبه فى دعواه واعتبر معجزاته من قبيل السحر والدجل والشعوذة .
وصنف : ألحد فيه وفى آياته ، وادعى ألوهيته ، فهو إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، واتخذ من معجزاته ومن ميلاده دليلاً على دعواه .
وكلا الصنفين الأخيرين – المكذب والملحد – بنى موقفه على الظن والهوى ، فإن من كذب كان متناقضاً فى موقفه ، حيث فرق فى دلالة المعجزة بين عيسى وبين الرسل السابقين ، وأما من ألحد فإنه متحكم فى تمييزه فى دلالة المعجزة أيضاً بين عيسى وبين الرسل السابقين ، حيث أعطى لعيسى خصوصية لا تستند على دليل فى تميزه على الرسل السابقين الذين أيدوا بمعجزات من جنس ما أيد به عيسى ، فقلب العصا ثعبانا ليست أقل فى الإعجاز من أحياء الموتى أو شفاء الأمراض .

- طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء كآية يزداد بها إيمانهم ويقينهم بعيسى ورسالته ، وقد استجاب الله لدعاء عيسى هذه المائدة وجعلها عيداً له ولاتباعه .

- أحل عيسى عليه السلام كرسول بعض ما حرم على بنى إسرائيل ، ولكن لم تنص الآيات صراحة إن كان هذا الذى أحله كان محرماً من الله أو كان بتحريم اليهود أنفسهم .

- عيسى لم يقتل ولم يصلب وإنما رفعه الله وانتهت حياته على الأرض بطريقة لم يفصح عنها القرآن .

هذه هى سيرة عيسى وصورته كما رسمها القرآن ، فإذا نظرنا من جهة أخرى فى الأناجيل بنفس المعيار الذى نظرنا به فى الآيات ، من حيث الدلالة المباشرة والظاهرة للنص وبعيداً عن تدخلنا بالتفسير والتأويل ، لوجدنا أن تلك النصوص لا تختلف عن القرآن فى مجملها حول تلك المسائل التى تتعلق ببشرية عيسى عليه السلام ورسالته ، اللهم إلا فى مسألة الصلب والقتل ، وأنه ليس فيها ما يدل صراحة على ألوهية عيسى إلا بنوع من التعسف والتحكم فى استخدام بعض الألفاظ وتفسيرها بطريقة إيحائية وحملها على أحد معانيها المحتملة ، ولنأخذ على ذلك مثلاً من الأناجيل :

انجيل متى : يقول عيسى لأبليس حين طلب منه أن يسجد له ويعطيه الملك والمجد : « **اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد** »[11] .

ويقول : « **لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل** »[12] .

ثم يؤكد نبوته ورسالته فيقول : « **من يقبل يقبلني ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ، من يقبل نبياً باسم نبى فأجر نبى يأخذ** »[13] .

« **ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم فى مجمعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ، أليس هذا ابن النجار ، أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوس وسمعان ويهوذا . أو ليست أخواته جميعهن عندنا ، فمن أين لهذا هذه كلها ، فكانوا يعثرون به . وأما يسوع فقال لهم ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته ، ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم** »[14] .

« **وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أنى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ، فقال له لماذا تدعونى صالحاً ، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله ..** »[15] .

بل إن شعبه لم يعرفه إلا نبياً : « **ولما دخل أورشليم إرتجت المدينة كلها قائلة من هذا ، فقالت الجموع هذا يسوع النبى الذى من ناصرة**

(١١) الإصحاح : ٤ : ١٠ .
(١٢) الإصحاح : ٥ : ١٧ .
(١٣) الإصحاح : ١٠ /٤٠ – ٤١ .
(١٤) الإصحاح : ٥٤/١٣ – ٥٨ .
(١٥) الإصحاح : ١٧/١٦/١٩ .

الجليل »[١٦] .

« وفى الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد ، فيبست التينة فى الحال ، فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين كيف يبست التينة فى الحال ، فأجاب يسوع وقال لهم . الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ولا تشكون فلا تفعلون أمر التينة فقط بل إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون ، وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تنالوه »[١٧] .

ثم ينهاهم عن الشرك بالله : « ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات . ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح »[١٨] .

وعيسى يصلى لله الذى بيده الحياة والموت « حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جتسيمانى فقال للتلاميذ إجلسوا هنا حتى أمضى وأصلى هناك ، ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب . فقال لهم نفسى حزينة جداً حتى الموت . امكثوا هنا واسهروا معى ، ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلى قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت .. فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلاً يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك ، ثم جاء فوجدهم أيضاً نياماً .. فتركهم ومضى أيضاً وصلى ثالثة قائلاً ذلك بعينه . ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطاة .. »[١٩] .

ويسقط العيار كل إدعاء بألوهية عيسى أو حتى القول بملكيّته : « .. إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب .. خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها . إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به ، قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراد ، لأنه قال أنا ابن الله ، وبذلك أيضاً كان اللصّان اللذان صلبا معه يعيرانه .. صرخ يسوع بصوت عظيم إلهى إلهى لماذا

---

(١٦) الإصحاح : ٢١/١٠ – ١١ .
(١٧) الإصحاح : ٢١/١٨ – ٢٢ .
(١٨) الإصحاح : ٢٣/٩ – ١٠ .
(١٩) الإصحاح : ٢٦/٢٦ – ٤٥ .

تركتنى .. وأسلم الروح »[٢٠] .

انجيل متى : فنقرأ عن خصوصية رسالته ببنى إسرائيل : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جداً. فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : إصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٢١] .

« هؤلاء الأثنى عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٢٢] .

انجيل لوقا : « وإذ كان يصلى فى موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه يا رب علمنا أن نصلى كما علم يوحنا تلاميذه ، فقال لهم متى صليتم فقولوا أبانا الذى فى السموات ليتقدس إسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض – خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم ، واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير »[٢٣] .

« وكان يخرج شيطاناً .. فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس . فتعجب الجموع . وأما قوم منهم فقالوا ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين ، وآخرون طلبوا منه آية من السماء يجربونه ، فعلم أفكارهم وقال لهم كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب .. ولكن إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله »[٢٤] .

« وفيما يتكلم بهذا رفعت إمرأة صوتها من الجمع وقالت له طوبى للبطن الذى حملك والثديين الذين رضعتهما ، أما هو فقال بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه »[٢٥] .

« وإذا اثنان منهم [أى من تلاميذه] كانا منطلقين فى ذلك اليوم .. وكانا يتكلمان عن جميع هذه الحوادث .. اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشى

---

(٢٠) الإصحاح : ٢٩/٢٧ – ٥٠ .
(٢١) الإصحاح : ٢١/١٥ – ٢٤
(٢٢) الإصحاح : ٥/١٠ – ٧
(٢٣) الإصحاح : ١/١١ – ٤
(٢٤) الإصحاح : ١٤/١١ – ٢٠
(٢٥) الإصحاح ٢٧/١١ – ٢٨

معهما ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته ، فقال لهما ما هذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما عابسين ، فأجاب أحدهما الذى اسمه كليوباس وقال له هل أنت متغرب وحدك من أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها هذه الأيام ، فقال لهما وما هى ، فقال المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنساناً نبياً مقتدراً فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب ، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل .. »[٢٤] .

انجيل يوحنا : « لا تظنوا أنى أشكوكم إلى الآب ، يوجد الذى يشكوكم وهو موسى الذى عليه رجاؤكم . لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى .. »[٢٥] .

« فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم »[٢٦] .

« فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ، أجاب يسوع : أن تؤمنوا بالذى أرسله »[٢٧] .

« ولست أفعل شيئاً من نفسى بل أتكلم بهذا كما علمنى أبى ، والذى أرسلنى هو معى ولم يتركنى الآب وحدى لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه »[٢٨] .

« ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله »[٢٩] .

« الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته أنا مجدتك على الأرض ، العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته »[٣٠] .

« فقال لها يسوع يا مريم فالتفتت تلك وقالت له يا معلم ، قال لها يسوع لا تلميسننى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ، ولكن إذهبى إلى إخوتى وقولى

---

(٢٤) الإصحاح : ١٢/٢٤ – ٢١ .
(٢٥) الإصحاح : ٥/٤٥ – ٤٦ .
(٢٦) الإصحاح : ١٤/٦ .
(٢٧) الإصحاح : ٢٨/٦ .
(٢٨) الإصحاح : ٢٨/٨ – ٢٩ .
(٢٩) الإصحاح : ٤٠/٨ .
(٣٠) الإصحاح : ٣/١٧ – ٤ .

لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم ، فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا »(٣١) .

وبإستعراض هذه النصوص نستطيع أن نقرر أنه ليس هناك خلاف جوهرى حول أمرين :

أولاً : طبيعة عيسى عليه السلام ..

فمن حيث طبيعته ، فهو بشر رسول أيدّه الله بمعجزات تصديقاً له فى دعواه كسائر الرسل ، وَإذا كان القرآن غالباً ما كان يدعوه (إبن مريم) تأكيدًا على نسبته البشرية والإشارة إلى ولادته من غير أب كما ذكرنا ، فإن الأناجيل فى دعوته (إبن الإنسان) إنما تؤكد بالمنطق الدينى السليم نفس المعنى الذى أراده القرآن ، أمّا دعوته (ابن الله) فهذه نسبة مجازية تعنى التربية والطاعة والولاء وليست بحالٍ نسبة حقيقية ، بدليل أن عيسى نفسه كما ورد بالنصوص التى أوردناها ونصوص غيرها كثيرة كان يدعو أتباعه بإسم أبيه وَأبيهم الذى فى السماء ، فليس لعيسى بهذه النسبة خصوصية ما أو دلالة تميز طبيعته عن طبيعة غيره من البشر(٣٤) .

---

(٣١) الإصحاح : ١٦/٢٠ – ١٨ .

(٣٤) وإن كان الدكتور شارل جنيبر فى كتابه – المسيحية نشأتها وتطورها – قد توسع فى تحليل هذه المسألة وإنتهى إلى أن : « النتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي أن عيسى لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر ولم يقل عن نفسه أنه ابن الله .. كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الأناجيل باطلاق تعبير ابن الله على عيسى ، فتلك لغة لم يبدأ استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، إنها اللغة التى استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع وقد وجدا فيها معانى عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة لهما » ص ٣٩ ، « ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه « عبد الله » وتقدم للناس بهذه الصفة ، والكلمة العبرية « عبد » كثيراً ما تترجم إلى اليونانية بكلمة تعنى « خادماً » و « طفلا » على حد سواء ، وتطور كلمة « طفل » إلى كلمة « ابن » ليس بالأمر العسير ، ولكن مفهوم « ابن الله » نبع من العالم الفكرى اليونانى » ص ٣٩ هامش ١١ ، ثم يقول : « لقد اختلط الأمر فى فترة من الفترات على بعض المؤمنين الذين لم يكونوا على معرفة كبيرة باللغة الآرامية إذ أن تعبير « ابن الإنسان » فى هذه اللغة يعنى فقها « إنسان » أو « رجل » فنهيأ لهؤلاء المؤمنين أن هذا التعبير الذى يلقونه أيضاً فى مجموعة الحكم المعروفة « اللوجيا » لا بد وأن يحتوى على سر عميق .. فقرروا أن « ابن الإنسان » مرادف مسيحى خاص لكلمة « مسيح » ، وتحليل النصوص يؤكد خطأ الذين ذهبوا هذا المذهب فى تأويل التعبير المذكور » ص ٤٠ .

أقول ومع ذلك ، فإننا لو أخذنا بتلك الألفاظ على ظاهرها بحسب نصوص الأناجيل فإنها لا تثبت بحسب سياقها واشتراكها واستعمالها الذى وردت به دعوى ألوهية عيسى أو تميزا فى طبيعته البشرية . المؤلف .

الأمر الثانى : خصوصية رسالة عيسى ببنى إسرائيل ..

وقد حدد عيسى عليه السلام تلك الخصوصية بنفسه كما حددها لتلاميذه وحوارييه . أما ما ورد من نصوص على لسان عيسىٰ تحدث بها لحوارييه فى كل الأناجيل تشير بوضوح إلى أنه كان من مهمته التبشير برسالة عامة وخاتمة لرسول يأتى من بعده ، إلا أننى آثرت عدم ذكر هذه النصوص لأنه يمكن الخلاف حول تفسيرها[٣٥] .

وبدلالة هذه النصوص وبالنظر فى الأناجيل الأربعة نستطيع أن نؤيد ، إلى حد ما ، ما ذهب إليه شارل جنير فى قوله إن عيسى عليه السلام : « لم يأت بدين جديد ولا حتى بأى من طقوس العبادة جديدة ، لم يأت إلا بتصور شخص فريد للتقوى فى إطار الديانة اليهودية ، تلك الديانة التى لم يزعم قط أنه يبغى التغيير من معتقداتها أو شرعها وشعائرها »[٣٦] .

---

(٣٥) انظر متى الإصحاح : ٢٤ ، ٢٥ ، مرقس الإصحاح : ١٣ ، لوقا الإصحاح : ١٢ – ٢١ ، يوحنا الإصحاح : ٥ – ١٥ .

(٣٦) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٤٨ .

الحواريـون والرســـل :

وقد أفردنا هذه المسألة بحديث مستقل ، لأن النظر فيها يختلف عن النظر فى اليهودية ، حيث إنه إذا كان من المُسلم به فى النصوص الدينية للأديان الثلاثة تتابع الرسل والأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فإن وجود رسل وأنبياء بعد عيسى عليه السلام أمر ينكره اليهود الذين لا يعترفون برسالة عيسى عليه السلام فضلا عن حواريين أو رسل بعده ، كما أن الاعتقاد السائد لدى المسلمين أنه لم يأت رسول أو نبى بعد عيسى عليه السلام حتى خاتم الرسل محمد ﷺ . فالزعم باستمرار النبوة والوحى فى اتباع عيسى عليه السلام أمر يتفق اليهود والمسلمون فى إنكاره . كما أنه لا يعتمد على دليل يعتد به ، فتكون تلك المسألة من باب النحلة والدعوى وإن كان المسيحيون يعتبرونها من باب الملة والدين .

أما الحواريون

فهم أصحاب عيسى عليه السلام ، وهم أول من آمن به وتتلمذ عليه وعاونه فى دعوته . والقرآن والأناجيل متفقة فى هذا ، إلّا أن القرآن لم يسمّهم أو يحصهم أما الأناجيل فقد عنيت بذكر أسمائهم وعددهم ، على خلاف بينها فى ذلك ، كما اختلفت حول رسالتهم التى لم يشر القرآن إليها ، فبينما يذكر مرقس أن المسيح أرسلهم إلى العالم ، يقرر متى أن المسيح نهاهم عن إرتياد البلاد الأجنبية . وسنذكر أسماءهم إعتمادًا على رواية متى الذى انفرد بإحصاءهم فى فقرة مستقلة ولأنه الأول بحسب ترتيب الأناجيل مع ملاحظة تلك الاختلافات التى أشرنا إليها ، فمثلاً قد أغفل لوقا ذكر « لباوس » وذكر بدلاً منه إسماً آخراً لم يذكره متى وهو « يهوذا أخا يعقوب » كما انفرد يوحنا بذكر اثنين عن باقى الأناجيل وإسمهما « ونثنائيل وفليب » .. وهكذا ..

يقول متى : « ثم دعا (أى المسيح عليه السلام) تلاميذه الإثنى عشر ، وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسه ، حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف .

وأما أسماء الأثنى عشر رسولاً فهى :
سمعان الذى يقال له بطرس ، وأندراوس أخوه ، ويعقوب بن زيدى ،

ويوحنا أخوه ، وفيليبس ، وبرتولماس ، وتوما ، ومتى العشار ، ويعقوب بن حلفى ولباو الملقب تداوس ، سمعان القانوى ، ويهوذا الأسخربوطى الذى أسلمه »[٣٧] .

وأما الرسل :

فهناك الرسل السبعون الذين يقال أن المسيح أرسلهم ليعلموا المسيحية .

وهناك المائة والعشرون الذين خطبهم بطرس خطاباً امتازوا بعده بالروح القدس ، وراحوا يدعون للمسيحية . وهؤلاء لم يرد ذكر فى القرآن عنهم .

وابن حزم فى كتابه (الفصل فى الملل) يرفض أن يكون هؤلاء هم حوارى عيسى الذين تحدث عنهم القرآن ويعلل رأيه بفساد اعتقاداتهم فى المسيح فيقول : « ليعلم كل مسلم أن هؤلاء الذين يسمونهم النصارى ، ويزعمون أنهم كانوا حواريين للمسيح عليه السلام كباطرة ومتى .. لم يكونوا قط مؤمنين ، فكيف حواريين ، بل كانوا كذابين مستخفين بالله تعالى ، إما مقرين بالإلهية المسيح عليه السلام معتقدين لذلك غالين فيه كغلو السبائية وسائر فرق المغالية فى على رضى الله عنه . وإما مدسوسين من قبل اليهود كما تزعم اليهود ، لإفساد دين أتباع المسيح عليه السلام وإضلالهم . وأما الحواريون الذين أثنى الله عليهم فأولئك أولياء الله حقاً .. ولا ندرى أسماؤهم لأن الله تعالى لم يسمهم لنا »[٣٨] .

وَإنكار إبن حزم وإن كان له وجه إلّا أن مستنده فى الإنكار ليس بقوى ، إذ ربما نسبت هذه الأناجيل إليهم زوراً أو لحقها التحريف بعدهم . بل إن القول بصحة الأسماء مع تحريف أقوالهم أسهل فى ميزان النقد العلمى ، حيث إن الأسماء أقرب إلى عدم التحريف لسهولة حفظها وَنقلها تواتراً من الأقوال التى تنسب إليها . فالجزم هنا متروك إلى التحقيق العلمى فى تلك المسائل ، وهو لم ينته بعد إلى تقرير شئ حاسم فى هذه المسألة .

---

(٣٧) إنجيل متى الإصحاح ١٠ .
(٣٨) جـ ٣ ص ٣٨ - ٣٩ .

كتبهم

أما الكتاب الذى نزل على عيسى عليه السلام ، فهو الإنجيل كما جاء فى القرآن الكريم ، حيث يقول الله تعالى عن عيسى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾[39]

والإنجيل المنزل لا يتضمن أحكاماً تشريعية كثيرة فى الحلال والحرام . ولكنه يدور حول أمور عقائدية وأخلاقية بشر بها المسيح عليه السلام لخلاص الإسرائيليين من أوزارهم وتحريفاتهم . ولا نعرف عن الإنجيل المنزل شئ ، يعتمد عليه ، كوثيقة دينية صحيحة ، وإنما تناولته يد التحريف والتبديل . وقد اتخذ اليهود من هذا مبرراً لكفرهم بالمسيح ، لأنه فى رأيهم كان مأموراً بمتابعة موسى عليه السلام والتوراة ، لكنه خالفها فى أمور منها : تغيير السبت بالأحد ، وإباحة أكل الخنزير ، وعدم الختان وغيرها من الأحكام[40] .

وقد صور القرآن الكريم حال اليهود والنصارى ، بعد أن حرفوا التوراة والإنجيل واتهاماتهم المتبادلة ، فى قوله

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[41]

كما أن الإنجيل النازل على عيسى لا ندرى إن كان عيسى كان قد كتبه بنفسه أو أملاه على أحد ولكن ما بين أيدينا الآن هو تلك الأناجيل التى تعتبر روايات

(٣٩) آل عمران : ٤٨ .
(٤٠) انظر مقارنة الأديان – المسيحية ١٧٤ .
(٤١) البقرة : ١١٣ .

عن عيسى عليه السلام وتعاليمه . ولهذا لا يدعى أحد من المسيحيين اليوم أن الأناجيل الأربعة الموجودة الآن ، هى من إملاء الوحى على عيسى ، وإنما هى من وضع أربعة رجال وضعوها فى تواريخ مختلفة .

والكتاب المقدس لدى المسيحيين يشتمل على قسمين :

(أ) **العهد القديم** : المتضمن التوراة والأسفار الدينية عند اليهود كما عرضناها فى الفصل السابق .

(ب) **العهد الجديد** : ويشتمل على الأناجيل الأربعة ، وأعمال الرسل . وتعليماتهم وتاريخهم وغير ذلك فى عهد عيسى وبعده .

غير أن المسيحيين يتهمون اليهود بتحريف التوراة عن طريق تأويلها ووضع الشروح والحواشى عليها ، لذلك لجأ المسيحيون إلى تفسير التوراة على ضوء أناجيلهم لخدمة اعتقادهم فى المسيح وألوهيته ، من هنا كان العهد الجديد هو كتاب المسيحيين الأهم .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة « إنجيل ترجع إلى أصل يونانى ومعناها (الحلوان) لمن يأتى بالبشرى ثم استعملت فى البشرى نفسها ، وقد استعملها عيسى بمعنى (بشرى الخلاص) وقد استمر استعمال هذا المعنى وتوسع فيه فأصبح عنواناً على تعاليم المسيح التى بشر بها لخلاص الإنسان من الخطيئة .

ثم استقر هذا الإسم عنواناً على الكتب المقدسة لدى المسيحيين ، فأصبح يقال : إنجيل متى ، وإنجيل لوقا ، وهكذا[٤٢] .

والعهد الجديد يحتوى على سبعة وعشرين سفراً : يمكن تصنيفها تحت أقسام ثلاثة :

أولاً : الأسفار التاريخية :

وتتحدث عن حياة عيسى عليه السلام وحواريه ، ويشمل هذا القسم الأناجيل الأربعة .

ثانياً : الأسفار التعليمية :

وهى عبارة عن الرسائل التى وجهها معلمى المسيحية الأول ، إلى أنحاء متفرقة يدعون الناس فيها إلى المسيحية .

---

(٤٢) انظر مقارنة الأديان – المسيحية ١٧٤ .

ثالثاً : رؤيا يوحنا اللاهوتى :

وفيها حديث عن رؤيا يقظية ليوحنا عن المسيح ودعوته ، واستمرار اتصاله برجال الدين المسيحى .

والعهد الجديد بما فيه من الأناجيل . وبوضعه الراهن ، يعتبر الصيغة الأخيرة التى أقرتها الكنيسة سنة ٣٢٥ م بعد خلافات دامية بين المسيحيين أنفسهم فى صحة كتبهم الدينية .

وفى هذا المقام فإننا نود التنبيه إلى أمر هام له دلالته ، وهو أن العهد الجديد يعتبر بشكله الحالى من وضع بعض رجال الدين المسيحى وتعبيراً عن وجهة نظر معينة . فهو عبارة عن صياغة لعقيدة أو مذهب معين شاع بين المسيحيين ، قبل تاريخ وضعه ، وهو مذهب التثليث والوهية عيسى الذى قال به بولس وأتباعه ، ثم أخذت به الكنيسة لأسباب سنذكرها فيما بعد .

ويتبين من هذا أن الكتب المقدسة عند المسيحيين الآن ، وضعت أو صارت معتمدة وأصبح لها صفة رسمية بعد المسيح بأربعة قرون تقريباً . ونسوق فى هذا الشأن رأى أحد القساوسة الذين أسلموا ، ويدعى عبدالأحد داود ، يقول :

(إن هذه السبعة والعشرين سفراً أو الرسالة الموضوعة من قبل ثمانية كتاب ، لم تدخل فى عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموع هيئتها بصورة رسمية إلا فى القرن الرابع باقرار مجمع « نيقية » العام وحكمه سنة ٣٢٥ م .

لذلك لم تكن إحدى هذه الرسائل مقبولة ومصدقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوى قبل التاريخ المذكور .

ثم جاء من الجماعات العيسوية فى الأقسام المختلفة من كرة الأرض ، ما يزيد على ألف مبعوث روحانى ، ومعهم عشرات الأناجيل ، ومئات الرسائل إلى « نيقية » لأجل التدقيق ، وهناك تم انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً ، وتم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تعد ولا تحصى . وصودق عليها .

وكانت الهيئة التى اختارت « العهد الجديد » هى تلك الهيئة التى قالت بألوهية المسيح ، أو كان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب

المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة « نيقية » وإحراقها كلها)[٤٣] .

من هذا يتضح أن مصدر المسيحيين فى اعتقاداتهم ، ليس هو المسيح نفسه ، أو الوحى الذى نزل عليه ، وإنما هو الكنيسة ، ورجال الدين المسيحى بعد عيسى عليه السلام بزمن طويل .

فمصدر المسيحية فى اعتقاداتهم ، هو فى الحقيقة مصدر بشرى وليس إلهى كما يزعمون ، وهذا رأى الثقاة من علماء المسيحيين أنفسهم .

ونحن هنا ، بخصوص غرضنا فى تمييز الملة من النحلة فى المسيحية بوثائقها الخاصة أى العهد الجديد وبنشأتها وتطورها والدراسات النقدية المستمرة فى تراثها ، نجدنا أمام موقف أكثر وضوحاً وأقل عناءاً فى إنجاز هذا الغرض . من موقفنا من اليهودية ، فليس من المجازفة لأى بحث علمى إعتماداً على تلك الدراسات ، القول بأن المسيحية بوضعها الراهن وبوثائقها الأصلية التى بين أيدينا الآن نحلة من حيث المحتوى ، ونسبة هذا المحتوى . وليس فيها من معنى الملة إلّا الجانب التاريخى الذى ليس أمامنا من سبيل لمعرفته معرفة يعتد بها حتى الآن على الأقل إلّا بالاعتماد على القرآن الكريم .

فالنصارى تختلف عن اليهود فى دعوى إتصال السند ، حيث أنهم بأجمعهم متفقون على أن الأناجيل التى بين أيديهم ، ليست هى الإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، بل يتغافلون جميعاً عن ذكر هذا الإنجيل ، وإنما هى سير أو تاريخ ألفه أربعة رجال ، بعضهم عاصره وبعضهم لم يعاصره فى أزمان مختلفة لا يزيد أكبرها حجماً عن ثمان وعشرين صفحة ، فأولها :

إنجيل متى :

(ومتى) كما يقولون ، أحد الحواريين ، ومن أصحاب عيسى عليه السلام ، مات بالحبشة سنة ٧٩ م حيث كان قد اتخذها مقراً لنشر دعوته ، وقد ألف إنجيله بعد تسع سنين من رفع عيسى عليه السلام ، وكتبه باللغة الآرمية أو العبرية كما يقول ابن حزم ، ولكن تلك النسخة فقدت ولم يعثر لها على أثر .

ثم ظهر كتاب باللغة اليونانية ، قيل إنه ترجمة لإنجيل متى وهو الموجود لدينا نسخ منه الآن ، ولكن لا يعرف مترجمه ولا تاريخ ترجمته ، مما يشكك فى

---

(٤٣) مقارنة الأديان – المسيحية – ١٧٤ .

صحة نسبته إلى متى ، ونحن نعلم ، أن أى شك فى المصدر الدينى ، يقلل من قيمته كوثيقة يعتد بها فى الاعتقاد والأصول الدينية .

ثم إنجيل مرقس :

ألفه كما يقولون ، مرقس الهارونى تلميذ شمعون الصفا بن توما المسمى باطرة تلميذ المسيح عليه السلام ، وقد وضعه بعد اثنين وعشرين عاماً من رفع المسيح ، وكتبه باللغة اليونانية أثناء وجوده فى أنطاكية ، وقد اتخذ مرقس مصر مقراً لدعوته ، وقتل بها سنة ٦٢ م .

والمصادر المسيحية مضطربة فى صحة نسبته إليه . فبينما تؤكد بعض المصادر أنه كتب بعد سنة ٦٢ م ، تؤكد مصادر أخرى أن مرقس قد قتل بمصر سنة ٦٢ م . فكيف يكون تاريخ الإنجيل بعد وفاة صاحبه .

كما أنهم يختلفون حول ما إذا كان مرقس هو الذى كتب إنجيله بنفسه ، أو أنه أملاه على غيره ، أو أنه من وضع أحد تلاميذه ، اعتمد فيه على أقوال تلقاها شفاهاً من أستاذه .

ويذهب آخرون ، إلى أن بطرس رئيس الحواريين ، وأستاذ مرقس ، هو الذى رواه عن تلميذه ، وهذا أمر غير مستساغ وغير مألوف ، فكيف تكون المسألة بالعكس فيروى أستاذ عن تلميذه . وهناك من يذهب إلى أنه وإنجيل يوحنا من وضع بولس(٤٤) .

إنجيل لوقا :

ولوقا ليس من الحواريين ولا من تلاميذهم ، وإنما هو تلميذ بولس ، وبولس لم يشهد المسيح ، أى أنه من أتباع التابعين ، وقد ألف إنجيله باللغة اليونانية فى انطاكية من بلاد الروم .

وإنجيل يوحنا :

وهو أكثرها تلبيساً فى مسألة ألوهية المسيح ، ويرجح الباحثون أن الإنجيل الذى ينسب إلى يوحنا إنما هو من وضع أحد المسيحيين المتأخرين بعد المسيح ، وليس من وضع يوحنا الحوارى ، كما يشاع خطأً ، فقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية :

---

(٤٤) انجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين ص ٣٥ ، تحقيق سيف الله أحمد فاضل ، دار القلم – الكويت ط٢ ، ١٩٨٣ .

« أما إنجيل يوحنا ، فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور ، أراد صاحبه به مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض ، وهما القديسان يوحنا ومتى وقد ادعى هذا الكاتب المزور فى نفس الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة ، هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت إسمه على الكتاب نصاً ، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً . ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه .

وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ، ذلك الرجل الفلسفى الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى ، بالحوارى يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى[٤٥] .

ويبدو أن ابن حزم قد وقع فى نفس الخطأ ، فنسب هذا الإنجيل إلى يوحنا تلميذ المسيح ، وعبارة ابن حزم نفسه تؤكد ذلك الخطأ فى نسبة هذا الإنجيل زوراً إلى يوحنا الحوارى فيقول :

(والرابع : تاريخ ألفه يوحنا ابن سيذاى من تلاميذ المسيح بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة ، وكتبه باليونانية .. ويوحنا هذا نفسه هو الذى ترجم إنجيل متى صاحبه من العبرانية إلى اليونانية)[٤٦] .

فواضح من قول ابن حزم أن يوحنا قد وضعه بعد رفع المسيح بأكثر من ستين سنة وتلك مدة كبيرة لا يتصور معها أن يكون يوحنا من أصحاب المسيح ثم يعيش بعده بأكثر من ستين سنة يضع إنجيله بعدها ، مع أن ابن حزم يقول بأن يوحنا قد مات مسموماً .

كما لا يعقل أن يضع يوحنا إنجيله وسنه أكثر من مئة سنة ، إذا اعتبرنا أن المسيح رفع ويوحنا قد بلغ من العمر أكثر من أربعين سنة .

والشهرستانى فى الملل والنحل يبدو أنه وقع فى نفس الخطأ فقد قال :
(ثم أن أربعة من الحواريين ، اجتمعوا وجمع كل واحد منهم جمعاً سماه :

---

(٤٥) انظر مقارنة الأديان – المسيحية ١٨٠ وما بعده .
(٤٦) الفصل فى الملل جـ ٢/٣ .

الإنجيل ، وهم متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا)[٤٧] ولعله وابن حزم نقلا كلام المسيحيين على علاته .

فهذا الإنجيل ، إما أن يكون من وضع رجل مسيحى إسمه يوحنا وتشابه الإسم هو الذى أوقع المؤرخين فى هذا اللبس ، كما تقول دائرة المعارف البريطانية ، وإما أنه قد نسب زوراً إلى يوحنا الحوارى بقصد ترويج ما فيه من أفكار .

ومن هذا نرى أن الأناجيل فضلاً عن الرسائل الأخرى ، كتبت كلها إعتماداً على الذاكرة بعد زمان أحداثها وخارج مكان تلك الأحداث ، وفى هذا تفسير للإختلاف والخلاف فى سرد وقائع هذه الأحداث ، وهذا كله يجعل مسألة السند والمتن بالنسبة للمسيحية غير ذات موضوع ولا تستدعى نقاشاً أو جدلاً حولها .

---

(٤٧) الملل والنحل ٢٠٢/١ .

فرقهـــــم

لقد مرت المسيحية كما سبق أن ذكرنا بأطوار عديدة ، فتعددت فرقهم تبعاً لتطور اعتقاداتهم وما طرأ عليها من تبديل وتحريف ، واختلاف حول طبيعة المسيح عليه السلام ، فاندثر منها ما اندثر وباد ما باد حتى وصلت إلى شكلها الحالى .

ولما كانت المجامع الكنسية ، هى فى الواقع الواضع الحقيقى للدين المسيحى فى صورته الراهنة ، والذى يختلف كلية عما أتى به صاحب الدين عيسى عليه السلام . ولما كان أول مجمع وضع أسس العقيدة المسيحية هو مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ م ، فسنأخذ من هذا التاريخ فاصلاً بين عهدين فى تاريخ الفرق .

فرق كانت قبله أو خرجت عليه ، لكنها حوربت وطورد أصحابها حتى الموت ، لأنها كانت تقول فى المسيح قولاً قريباً من الحق ، مثل :

١ – أصحاب بولس الشمشاطى ، وكان بطريركا بأنطاكية قبل ظهور المسيحية ، ثم اعتنق المسيحية ، وكان يذهب قريباً مما ذهب إليه أريوس فيما بعد من أن عيسى عبدالله ورسوله ، نبياً كأحد الأنبياء ، خلقه الله فى بطن أمه من غير ذكر ، فهو إنسان كسائر البشر .

٢ – أصحاب أريوس ، الذى كان قسيساً بالاسكندرية فى عهد قسطنطين الأول أوائل القرن الرابع الميلادى تقريباً ، وكان يذهب إلى القول بالتوحيد وأن عيسى عبد مخلوق لله .

٣ – وأصحاب مقدنيوس وكان بطريركاً فى القسطنطينية بعد ظهور المسيحية فى عهد قسطنطين الثانى .

ويذهب إلى أن عيسى عبد مخلوق ، إنسان نبى كسائر الأنبياء ، أرسله الله لهداية بنى إسرائيل ، وهو روح القدس وكلمة الله ، والروح والكلمة مخلوقان لله(٤٨) .

---

(٤٨) انظر الفصل فى الملل والأهواء ٤٨/١ .

وعلى أى حال فكل هذه الفرق وما يماثلها قد اندثر ، ومن يؤمن بمثل قولهم لا يعد اليوم من المسيحيين ، لأن العقيدة المسيحية قد استقرت على اعتقاد التثليث أو ألوهية عيسى . وتلك العقيدة يدين بها كل المسيحيين منذ مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ م ، وحتى اليوم . واختلاف الفرق وتعددها الآن إنما يدور حول أمور جدلية فى طبيعة المسيح ، وأشهر تلك الفرق هى :

أولاً - الملكانية :

الذين يقول الشهرستانى عنهم : (هم أصحاب ملكا الذى ظهر بأرض الروم واستولى عليها)[٤٩] ، وكان ذلك فى القرن الخامس الميلادى .

تعاليمهم :

يذهبون إلى أن الله طبيعة مركبة من ثلاثة أشياء ، أب ، وإبن ، وروح القدس ، فهم أصحاب التثليث ، ولعلهم المعنيين بقوله تعالى [المائدة /٨٣] :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾[٤٩]

وقالوا إن عيسى إله تام وإنسان تام ، وأن مريم قد ولدت هذا الإله الإنسان الذى يسمونه المسيح .

وقد أخذ بهذا الاعتقاد الكنيسة الغربية (الكاثوليك) .

ثانياً : النسطورية :

نسبة إلى نسطور الذى كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١ م .

ويذهبون إلى مثل ما ذهب إليه الملكانية . إلا أنهم يقولون إن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان ؛ لأن المخلوق لا يلد الخالق ، فمريم ولدت إنساناً تقمصه اللاهوت بعد مولده .

ثالثاً : اليعقوبية :

نسبة إلى داعية مشهور اسمه يعقوب البرادعى .

---

(٤٩) الملل والنحل ٢٠٣/١ .

قالوا : إن المسيح هو الله تعالى نفسه ، تجسد فى صورة إنسان ، وأنه هو الذي صلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، ثم قام ورجع كما كان تماماً .

وعنهم أخبرنا القرآن الكريم فى قوله تعالى [المائدة/١٧] :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾

فالمسيح فى نظرهم إله تام ولدته مريم ولذلك يطلقون عليها أم الله .

وهذا المذهب أخذت به الكنيسة الشرقية (الأرثوذكس)[٥٠]

(٥٠) الفصل فى الملل ٤٨/١ ، الملل والنحل ٢٠٣/١ - ٢٠٧ ، ومقارنة الأديان - المسيحية ١٦٥ - ١٦٦ .

المسيحية كما وضعتها الكنيسة
عقائـــد وشـــعائر

المسيحية لا تتضمن أحكاماً تشريعية ، وإنما أهم ما فيها هو اعتقادهم فى عيسى عليه السلام ، ولذلك علينا الآن أن نتبع نشأة تلك العقيدة وتطورها من خلال المجامع الكنسية التى هى الواضع الحقيقى للدين المسيحى كما قلنا .

ونحن لا نجاوز الصواب إذا قلنا إن المسيحية بوضعها الراهن ، دين وضعى وليس إلهى . من حيث استقرارها على عقائد وشعائر تنفرد بها ليس عن الإسلام ، الذى جاء به موسى وعيسى فحسب ، وإنما حتى عن اليهودية والمسيحية كما نراها الآن فى التوراة والأناجيل الأربعة « فالحقيقة التى لا جدال فيها هى أن الكنيسة لم تتمكن من الانتصار خلال القرن الرابع إلا بفضل انهزام الإيمان الأول الذى يمكن أن نسميه إيمان الاثنا عشر »[٥١] .

أما العقائد :

فتتمثل فى ركنين :

الأول : ألوهية عيسى أو عقيدة التثليث :

كان المسيحيون الأول ، يعتقدون فى عيسى الاعتقاد الصحيح ، من أنه عبدالله ورسوله ، أرسله الله لهداية بنى إسرائيل . ولكن بعد رفع المسيح بفترة قصيرة ، ولطبيعة حياة المسيح نفسها ، والأمور الخارقة للعادة فى مولده ونهايته وما ظهر على يديه من معجزات ، أثارت الجدل حول طبيعته . وقد أثار هذا الجدل وانحرف به ، عناصر دخيلة استغلت هذه الطبيعة الفريدة لعيسى عليه السلام ، وبثت أفكاراً غريبة واعتقادات باطلة وزينت للناس اعتناقها ، حتى انتهت المسيحية إلى دين يختلف كلية عما كان يدين به المسيحيون الأوائل .

وأول من قال بألوهية المسيح ، رجل يدعى (شاءول) سمى فيما بعد القديس (بولس) ، كان يهودياً شديد العداء للمسيحية ممعنا فى إضطهاد

---

(٥١) المسيحية - نشأتها وتطورها ص ١٩٠ .

المسيحيين والتحريض عليهم ، ولكنه فجأة غير دينه وحاله ، واعتنق المسيحية سنة ٣٨ م .

ولنعرض نبذة عن حياته ، مما قاله عنه لوقا فى أعمال الرسل ، يتضح لنا منها ، كيف كانت كراهيته الشديدة وعداوته السافرة للمسيح ودعوته ، يقول : (**وأما شاءول ، فكان يسطو على الكنيسة ، ويدخل البيوت ، ويجد رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن**)[٥٢] .

أما عن تحوله المفاجئ ودخوله المسيحية ، معلناً القول بألوهية عيسى عليه السلام وإدعائه أن هذا القول موحاً به إليه ، فيقول لوقا :

(أما شاءول فكان لم يزل ينفث تشدداً ، وقتلاً على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة ، وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات ، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم .

وفى ذهابه حدث أنه لما اقترب إلى دمشق ، فبغته أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض ، وسمع صوتاً قائلاً له : شاءول ، شاءول ، لماذا تضطهدنى ؟!

فقال من أنت يا سيد ؟
فقال الرب : أنا يسوع الذى أنت تضطهده ..
فقال وهو مرتعد ومتحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟
فقال له الرب : قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل ..
فنهض شاءول عن الأرض وكان هو مفتوح العينين لا يبصر أحداً ، فاقتادوه وأدخلوه إلى دمشق وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب .
وكان فى دمشق تلميذ اسمه حنانيا ... فقال له الرب : قم واذهب إلى الزقاق .. واطلب فى بيت يهوذا رجلاً طرسوسياً اسمه شاءول لأنه هوذا يصلى .

فأجاب حنانيا : يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسك فى أورشليم .
فقال له الرب : إذهب لأن هذا لى إناء مختار ليحمل إسمى أمام أمم

---

(٥٢) أعمال الرسل الإصحاح ٨ .

وملوك بنى إسرائيل ..

فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه ، وقال : أيها الأخ شاءول قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق .. فللوقت وقع من عينيه شئ كأنه قشور فأبصر فى الحال ..

وكان شاءول مع التلاميذ فى دمشق أياماً وللوقت جعل يكرز فى المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله(٥٣) .

هذه هى نبذة عن (شاءول) أو القديس (بولس) كما رواها لوقا .

ويروى الباحثون والمؤرخون ، أن بولس كان على جانب كبير من الذكاء ، كما كان شديد الاهتمام بدراسة الأديان والفلسفات القديمة ، ونقل إلى المسيحية كثيراً منها ، وعلم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ، ليقدم نفسه قرباناً يصلب تكفيراً عن خطيئة البشر ، التى ارتكبها أبوهم آدم ، فموته كان تضحية عظيمة من إله عظيم ، لخلاص البشرية .

وراح القديس بولس ، يقرب إلى عقول تلاميذه مذهبه ، فضرب لهم المثل بالاعتقادات المصرية القديمة ، وأن شأن عيسى كشأن « أوزوريس » كان رباً مات ليبعث حياً من جديد ويمنح الناس الخلود .

وهكذا دخل بولس المسيحية وأصبح معلماً لها ، بل يعتبر فى نظر الباحثين الغربيين هو المؤسس الحقيقى للمسيحية بوضعها الراهن(٥٤) .

وبولس نفسه يدعى أن ما يبشر به وما ينادى به ، ليس من عند نفسه أو من عند غيره من الناس ، وإنما تلقاه وحياً من يسوع المسيح ، وهو بهذا يقطع الطريق أمام أى اعتراض أو مناقشة لما يقول .

يقول : (**وأعرفكم أيها الأخوة ، الإنجيل الذى بشرت به ، أنه ليس بحسب إنسان ، لأنى لم أقبله من عند إنسان ، ولا علمته ، بل بإعلان يسوع المسيح**)(٥٥) .

---

(٥٣) أعمال الرسل الإصحاح ٩ .
(٥٤) مقارنة الأديان المسيحية - ٩٠ .
(٥٥) إلى أهل غلاطية الأصحاح ١ .

ويقول عن نفسه : (**بولس رسول ، لا من الناس ولا بانسان ، بل بيسوع المسيح**)[٥٦] .

ومن خلال هذه العصمة ، أو الصلة الإلهية التى أسبغها بولس على نفسه ، أدخل فى المسيحية أربع عقائد رئيسية كانت هى الأساس الذى أخذت به المجامع الكنسية وقررتها ، كعقيدة نهائية للمسيحيين فيما بعد ، وتلك العقائد هى :

١ – المسيحية ليست ديناً لليهود فحسب ، بل هى دين عالمي .

٢ – القول بالتثليث ، الأب والابن وروح القدس إله واحد ، أى القول بألوهية المسيح .

٣ – القول بأن صلب عيسى كان تكفيراً عن خطيئة البشر ..

٤ – إن عيسى هو الذى سيحاسب البشر يوم القيامة « فقد قام من الأموات بعد صلبه بثلاثة أيام وصعد إلى السماء ليجلس عن يمين أبيه كما كان من قبل ، ليحكم بين البشر يوم القيامة »[٥٧] .

ومما ساعد على نشر أفكار بولس ، وعقائده بين الناس واعتناق المسيحيين لها عاملان :

العامل الأول :

سبب نفسى يتصل ببولس نفسه ، فقد أعلن اعتناقه المسيحية ، بعد أن كان من أشد المعارضين لها ، فكان لهذا رد فعل أنعش آمال المسيحيين المضطهدين ، فى انتصار دعوتهم وخلاصهم ، وهذا العامل النفسى ، مع ما تمتع به بولس من ذكاء ودهاء ، ساعد إلى حد كبير على قبول أفكاره وانتشار دعوته وأصبح بمثابة القوة الدافعة لمذهبه إلى تسيد المذاهب الأخرى فى وجدان الجماهير .

العامل الثانى :

الاضطهادات التى التهمت كثيراً من مراجع المسيحية الأصلية وقضت على المسيحيين الحقيقيين عقب رفع عيسى ، واستمرار هذا الاضطهاد بعنف على يد اليهود وأباطرة الروم ، جعل الناس يصدقون الخرافات التى تنعش آمالهم وتشد من عزائمهم ، ويتقبلون الموت والتعذيب أسوة بابن الله الذى صلب فداء للبشر .

---

(٥٦) إلى أهل غلاطية الأصحاح ١ .
(٥٧) انظر مقارنة الأديان – المسيحية ٩٥ .

وعلينا الآن الإشارة إلى أهم تلك المجامع التى قننت المسيحية وأعطتها شرعيتها الدينية ، من حيث كتبها وطقوسها وشعائرها :

مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م :

فى خلال هذه القرون من الاضطهادات التى بلغت ذروتها فى عصر الأمبراطور « دقلدس ياقوس » ٢٨٤ – ٣٠٥ م والذى يسميه المسيحيون عصر (الشهداء) ، لكثرة ما سفك فيه من دماء مسيحية ، وما صاحب ذلك من خلافات دينية بين المسيحيين أنفسهم ، بما بثه بولس من أفكار ومعتقدات فى المسيح ، أفقدت المسيحية أصولها الصحيحة وطابعها ، ودخل عليها كثير من أفكار فلسفية وخرافات شعبية على حد سواء ، انتهت بها إلى خليط من التناقضات والخرافات ، خصوصاً حول طبيعة المسيح ، ومن ثم تعددت فيه الأقوال والمذاهب .

فمن يقول : إنه إنسان كسائر الناس ، ورسول كسائر الرسل .
ومن يقول أنه إله أو ابن إله ، أو هو الاثنين معاً .

فخشيت الكنيسة أن تودى هذه الاختلافات ، بالمسيحية نفسها ؛ خصوصاً بعد أن أصبحت دين الدولة الرومانية فى عهد قسطنطين ، الذى اعتنق المسيحية كما يقول بها بولس ، والذى خشى على تفكك الامبراطورية بسبب هذه الخلافات . من أجل هذا جمع قسطنطين البطاركة والأساقفة ، فيما يسمى بمجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ م لوضع عقيدة موحدة يدين بها المسيحيون جميعاً .

اجتمع المجمع أول مرة ، وكان عدد المجتمعين ٢٠٤٨ عضواً ، يمثلون الكنائس ورجال الدين فى شتى أنحاء الأمبراطورية .

ثم أخذوا يناقشون الاعتقادات والآراء المختلفة فى المسيح وخصوصاً ما أعلنه أريوس المصرى من أن الأب وحده هو الله وأن الابن مصنوع الله . وما لبث أن انقسم المجمع على نفسه ، بين مؤيد ومعارض لمقالة أريوس ، ولم يستطع التوصل إلى قرار موحد فى طبيعة المسيح . فقرر الامبراطور ، أن يفرض بنفسه عقيدة التثليث التى يؤمن بها ، وفى سبيل ذلك عمد إلى قتل أريوس وكثير من مؤيديه داخل المجمع ونفى الباقين ثم دعا إلى مؤتمر آخر فى نفس المكان وفى نفس العام لم يحضره إلا القائلون بالتثليث وألوهية المسيح وكان عددهم ٣١٨ عضواً(٥٨) .

(٥٨) المرجع السابق ١٦٨ – ١٧٠ .

وانتهوا إلى قرارهم ، الذى يعتبر أساس العقيدة المسيحية حتى اليوم وهذا هو نص القرار .

(نؤمن بالله الواحد : الأب ، مالك كل شئ ، وصانع ما يرى ومالا يرى ، وبالابن الواحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع .

إله حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شئ من أجلنا .

ومن أجل معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقتل وصلب أيام فيلاطوس . ودفن .

ثم قام فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه ؛
وهو مستعد للمجئ تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ؛
ونؤمن بروح القدس الواحد ، روح الحق الذى يخرج من أبيه ؛
وبمعمودية واحدة ، لغفران الخطايا :
وبجماعة واحدة قدسية مسيحية ؛
وبقيام أبداننا وبالحياة الدائمة أبد الآبدين[٥٩] .

بهذا القرار ، أصبح المسيح إله عند المسيحيين أو ابن إله ، وأصبحت العقيدة المسيحية تقوم على فكرة الأقانيم الثلاثة أو التثليث .

ثم توالت بعد ذلك المجامع لتقرر أصولاً اعتقادية فى المسيح ورجال الكنيسة مثل :

مجمع روما سنة ٨٦٩ م :

وقد قرر :

١ - الروح القدس منبثق من الأب والإبن .

٢ - من يريد المحاكمة فى أمر يتعلق بالدين ، يرفع دعواه إلى كنيسة روما .

٣ - المسيحيون فى جميع أنحاء العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما .

---

(٥٩) الملل والنحل ١/٢٠٤ .

مجمع القسطنطية سنة ٨٧٩ :

وفيه تقرر أن انبثاق الروح القدس هو من الأب فقط وليس من الإبن ، فاعتبر هذا مخالفاً لمجمع روما السابق وخروجاً على كنيسة روما .

وبهذا المجمع انقسمت الكنيسة إلى غربية ، وشرقية ، وأصبح لكل واحدة مجمعها الخاص بها ، والذى لا يعترف بقرارات المجمع الآخر .

مجمع روما سنة ١٢٢٥ :
الذى قرر أن الكنيسة تملك الغفران وتمنحه من تشاء .

ثم مجمع روما سنة ١٨٦٩ :

وفيه تقرر أن البابا معصوم من الخطأ وله حق التشريع ، وأن كل ما يصدر عنه لا يمكن مخالفته والمخالف له كافر وملعون .

ولقد استندت الكنيسة فى تقرير هذه السلطة لها ، على بعض النصوص الدينية التى تزعم أن المسيح قد أعطى القدرة لتلاميذه ، على إتيان المعجزات ، ثم ورثت هذه القدرة لرجال الدين بعدهم ، كما أن نزول الوحى لم ينقطع برفع عيسى وإنما هو متصل بتلاميذه وأتباعهم إلى ما شاء الله .

وأول من غرس هذه الفكرة وروجها فى الفكر المسيحى هو بولس كما رأينا ، والمتصفح للأناجيل الأربعة وما فى أسفار العهد الجديد وخصوصاً أعمال الرسل ورسل بولس ، يجد فكرة الملاك الذى يرشد المؤمنين ويتصل بهم والمعجزات التى ظهرت على أيدى تلاميذ المسيح ، تتردد كثيراً وبالحاح عجيب .

فرجال الدين أو الكنيسة عند المسيحيين لهم نفس القداسة والعصمة التى ليسوع المسيح ، ومن هنا كان الخروج على طاعة الكنيسة ورجالها كفر بالمسيح والمسيحية .

كما أن فكرة اتصال الوحى ونزوله على أتباع عيسى ، المبرر الذى يعتمد عليه المسيحيون فى الأخذ بالعهد الجديد ، واعتقاد ما فيه ، رغم أنهم جميعاً يعترفون أنه ليس من وضع عيسى ولا املائه ، وإنما هو من وضع تلاميذه .

أما الركن الثانى : فهو الصلب والفداء :

وفيه يقول المسيحيون إن من صفات الله : **العدل** ، **والرحمة** .

وبصفة العدل : كان على الله أن يعاقب البشر بذنب أبيهم آدم الذى عصى وأكل من الشجرة المحرمة ، فطرد من الجنة مغضوباً عليه ، وذريته من بعده بسبب هذه الخطيئة .

وبصفة الرحمة : أراد الله أن يغفر لآدم وذريته هذه الخطيئة .

ولم يكن من طريق للجمع بين الإرادتين ، أو الصفتين – العدل ، والرحمة – إلا بتوسط ابن الله ووحيده ؛ فأظهره فى صورة إنسان يعيش عيشة الإنسان ، ثم يصلب ظلماً ليكفر عن خطيئة البشر أو قام هو نفسه بهذه المهمة فى قول آخر .

وهذا نص ما ورد فى العهد الجديد : (**وإن ابن الإنسان قد جاء ليخلص ما قد هلك : فبمحبته ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص ؛ لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته .**

إذ أن مقتضى العدل ، أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم . ولكن باقتران العدل والرحمة وبتوسط الإبن الوحيد ، وقبوله التكفير عن خطايا الخلق ، قرب الناس من الرب بعد الابتعاد)[٦٠] .

وجاء فى إنجيل يوحنا الاصحاح الثالث قوله : (**أحب العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية . لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم ، بل ليخلص به العالم**) .

وهنا يبرز سؤال لابد منه : كيف يمكن غفران خطيئة آدم الذى عصى الله ، بخطيئة آدم الذى قتل ابن الله ؟! أو كيف يمكن أن تغفر خطيئة الأكل من الشجرة ، بخطيئة أبشع منها ، وهى قتل ابن آدم لابن الله ؟!

ثم إذا كان جوهر دعوة المسيح هو : **الله محبة** ، والتسامح إلى حد إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . أليس من الأجدر بينبوع المحبة والتسامح ، أن يغفر لآدم وذريته ، دون اللجوء إلى اختبارهم القاسى هذا ،

---

(٦٠) مقارنة الأديان المسيحية – ١٣٥ – ١٣٦ .

وإيقاعهم فى خطيئة لا يمكن تكفيرها ، لأنه كيف يستحق من يقتل ابن الله أى تسامح أو مغفرة ؟!

هذه هى العقيدة المسيحية كما وضعتها الكنيسة وكما يعتنقها المسيحيون اليوم ، ونحمد الله تعالى أن هدانا إلى الإسلام .

أما الشعائر :

فهى طقوس لا ترقى فى أهميتها إلى الأصول الاعتقادية التى سبق ذكرها ، فهى تفترق عنها ، من حيث أن الشخص لا يكون مسيحياً إلا بعد إيمانه بتلك الأصول ، أما الشعائر فالفرد يكون مسيحياً ولو لم يقم بها ، وإن كان يعتبر عاصياً أو مذنباً ، وأهم تلك الشعائر كما وضعتها الكنيسة هى :

التعميد :

والتعميد شعيرة أخذها المسيحيون عن اليهود ، فقد ورد فى إنجيل يوحنا - الاصحاح الأول أن يوحنا كان يعمد الناس فى نهر الأردن ، كما أنه هو الذى عمد المسيح عليه السلام ، ولهذا سمى « يوحنا المعمدان » وكان يكفى للشخص الشهادة بأن عيسى المصلوب هو المسيح مات تكفيراً وقام تكفيراً عن خطايا البشر وسيعود ليقضى بين الأحياء والأموات وينشئ مملكة الله ، ثم بعد الاقرار يعمد بالغطس فى الماء ثلاث مرات بمساعدة أخ له فى الإيمان ، ثم تطورت هذه الشعيرة مع تطور النظام الكنسى ، فأصبحت تتم بطقوس وأدعية وقرابين معقدة .

والتعميد لابد منه لكل مسيحى ، يقوم به كاهن الكنيسة التى يتبعها المعمد ولا يقوم بها غير الكاهن إلا عند الضرورة ، وحينئذ يسمى (تعميد الضرورة) . وهو عندهم فريضة مقدسة تؤدى إلى تطهير النفس وبراءتها من الخطيئة ، ودليل على إيمان المعمد وطاعته للأب والإبن وروح القدس ، كاله ومعبوده الوحيد . وصورته ، أن يقوم الكاهن برش الماء على جبهة المعمد ، أو غمس جزء من جسمه ، أو كل جسمه فى الماء ، ثلاث مرات ، الأولى باسم الأب ، والثانية باسم الإبن والثالثة باسم الروح القدس وعلى إجراء اللمس باليد الذى يصاحبه المس بالزيت المقدس .

أما وقته ، فلم يتفق المسيحيون فيما بينهم عليه ، فبعضهم يرى أن وقته الطفولة ، وبعضهم يرى أنه واجب موسع ، بمعنى أنه يصح القيام به فى أى وقت من حياة الشخص ، وبعضهم يرى أنه يحسن أداؤه عند الاحتضار ، بحجة أن

التعميد يزيل السيئات ويمحو الخطايا ، فيحسن أن يتم آخر الحياة ، حيث لا تقع ذنوب بعده[٦١] .

القربان أو التناول

بدأت هذه الشعيرة باجتماع بين الإخوان على أكل كسرات الخبز كتعبير عن الأخوة الإيمانية ، ثم تطورت إلى أن أصبحت رمزاً له طقوسه الفلسفية المعقدة ، يتناول فيه المتدينون فى جو من الترانيم والصلوات حول مائدة عليها خبز وخمر تمثلان المسيح ودمه يتناولها المجتمعون بغرض امتزاجهم الجسدى والروحى بالمسيح ، أما بالنسبة للافراد من المؤمنين فيتم على صورة تناول الفرد من يد الكاهن قطعة من الخبز وقليل من الماء أو الخمر . ويرمز به إلى عشاء عيسى الأخير مع تلاميذه ، كما وردت به الأناجيل ، إذ أعطاهم خبزاً وخمراً ، الخبز رمز إلى جسد المسيح الذى كسر فداء للبشرية عن خطيئتها الأولى ، أما الخمر فرمز إلى دمه المسفوح من أجل هذا الغرض .

وهذا التناول إذا أخذه الشخص من يد كاهنه ، استحال الخبز والخمر فى جسد المتناول إلى جسد المسيح ودمه ، فيحصل امتزاج بين الآكل وبين المسيح وتعاليمه .

وقد اعتمد المسيحيون فى تقرير هذه الشعيرة ، على الأناجيل الأربعة : فقد جاء فى إنجيل يوحنا - الاصحاح [٦/٥٣ - ٥٥] ، قوله :

(فقال يسوع : الحق ، الحق أقول لكم : إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان ، وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم ، من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية ، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير .. من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه ، كما أرسلنى الأب الحى ، وأنا حى بالأب ، فمن يأكلنى فهو يحيا بى) .

وجاء فى إنجيل متى [٦/٢٠ - ٢٩] عن الليلة الأخيرة للمسيح قوله :
« ولما كان المساء اتكأ مع الاثنى عشر ... وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر ، وأعطى التلاميذ وقال : خذو وكلوا هذا هو جسدى . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربو منها كلكم ، لأن هذا هو دمى الذى

(٦١) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٤٨ ، ١٥٣ .

للعهد الجديد ، الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا ، وأقول لكم : إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا ، إلى ذلك اليوم حيثما أشرب معكم جديداً فى ملكوت أبى) .

وجاء فى انجيل لوقا – الاصحاح [١٩/٢٢ – ٢٠] ، قوله عن المسيح :
(وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً : هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم ، اصنعوا هذا لذكرى ؛ وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء ، قائلاً : هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم) .

كذلك ورد فى إنجيل مرقس [٢٢/١٤ – ٢٤] ما نصه :
(وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم ، وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدى ، ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منه كلهم ، وقال لهم : هذا هو دمى الذى للعهد الجديد ، الذى يسفك من أجل كثيرين) .

هذه هى شعيرة التناول كما يعتنقها المسيحيون ، ولعل « بولس » هو الواضع الأول لتلك الشعيرة كما وضع غيرها ، فقد جاء فى رسالة لأهل كورنثوس ما يلى :

(إن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها ، أخذ خبزاً وشكر ، فكسر وقال : خذوا وكلوا ، هذا هو جسدى المكسور لأجلكم ، اصنعوا الذكرى ، وكذلك أعطاهم قليلاً من الخمر ، وقال : خذوا واشربوا ، هذا هو دمى المسفوك لأجلكم ؛ وإنكم كلما أكلتم هذا الخبز ، وشربتم هذا الكأس ، تخبرون بموت الرب حتى يعود)[٦٢] .

الصليب وحمله :

وقد ورد ذكر الصليب وحمله فى إنجيل لوقا [٢٣/٩ – ٢٤] :

[وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى ؛ فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى ؛ فهذا يخلصها] .

من هنا جاء تقديس الصليب والتبرك بحمله ، عند المسيحيين ، وكرمز

(٦٢) وانظر فى تطور تلك الشعرة المرجع السابق ١٥٩ – ١٦٠ .

على الاقتداء بالمسيح عليه السلام ، الذى حمل الصليب الذى صلب عليه ، وكتعبير عن الاستهانة بالحياة والاستعداد للتضحية حتى الموت صلباً .

كما أنه مما يزيد الصليب قداسة ، أنه الأداة التى شد عليها جسد المسيح حتى الموت ، من أجل خلاص الإنسان ، فهو الرمز الذى يذكر كل مسيحى ؛ كيف تألم المسيح وضحى من أجل خلاصه .

الاعتراف والتوبة :

وهى الشعيرة التى قررها مجمع روما الذى سبق ذكره فإنه يلزم على المسيحى ، الذى يريد التوبة من ذنوبه ، وحتى تقبل توبته ، يجب عليه أولاً الاعتراف بكل ذنوبه أمام كاهن ، بشرط ألا يخفى عنه شيئاً منها ، بعد ذلك يقبل الكاهن توبته ويمنحه غفران الرب ، فيصبح كيوم ولدته أمه .

وتعود أصول هذه الشعيرة إلى مذهب بولس فى أن الإيمان بالهية المسيح وصلبه ، وليس العمل بالناموس ، هو الأصل فى استحقاق الخلاص ، وهذه هى النغمة الرئيسية فى رسائله ، ففى رسالته إلى أهل غلاطية يقول : [٢/٢١] « **إن كان بالناموس برٌّ فالمسيح إذا مات بلا سبب** » ، و [**٣/١٣**] « **المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا ، لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة** » ، « ٣/٢٤ – ٢٧] « **كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكى نتبرر بالإيمان ، ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب ، لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع لأنكم كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح** » ، [٤/٤ – ٥] « **أرسل الله إبنه مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس** » .

ومن جهة أخرى فإن السلطة الروحية التى أعطيت للكهنة استمراراً للسلطة التى أعطاها المسيح لبطرس الحوارى : « **وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات** »(٦٣) . أعطى ذلك سلطاناً واسعاً للكهنة ورجال الدين على الناس فى التشريع والقبول والحرمان ، وقد كانت هذه الشعيرة لغرابتها وسوء استغلالها سبباً فى ثورة عالم اللاهوت الألمانى (مارتن لوثر) فى القرن السادس عشر ، فاتخذ من صكوك الغفران مبرراً للخروج على بابا روما ،

---

(٦٣) متى : ١٦/١٩ .

وتأسيس طائفة (البروتستانت) الذين أنشأوا كنيسة خاصة بهم عرفت بالكنيسة الإنجيلية .

وقد أصبحت تلك الصكوك ، ورقة رابحة فى يد الكنيسة « فما على البابا أو الكاهن ، حين يعوزه المال لأى غرض كان ، إلا طبع عدد منها ، تطرح للبيع كالأسهم والسندات ، ويترك بالصك فراغ ، يكتب فيه إسم من يريد استبدال كل ذنوبه ، ما تقدم منها وما تأخر ، بهذا الصك العجيب » .

وقد أدرك كثير من علماء اللاهوت فى المسيحية ، منذ القرن الخامس عشر ، ما لهذه الشعيرة من خطر أخلاقى واجتماعى ، فما هى إلا تفويض لمن يحصل عليها ، بارتكاب ما يشاء من الآثام ، وكأن الكنيسة تقرر بهذه الصكوك ، أنه لا تضر مع الصك معصية ، كما لا تنفع مع الحرمان منه ، طاعة .

وحتى يتضح لكم ، الأثر الخطير الذى يمكن أن تحدثه هذه الشعيرة فى الفرد والمجتمع ، إليكم نص صك الغفران :

(ربنيا يسوع المسيح ، يرحمك يا ... [يترك فراغ يكتب فيه اسم الذى يشتريه] ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية ؛ وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى ، أحلك من جميع القصاصات والأحكام ، والطائلات الكنسية التى استوجبتها . وأيضاً من جميع الافراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها ، مهما كانت عظيمة وفظيعة ؛ ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ؛ وأمحو جميع أقذار الذنب ، وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة : وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطر ، وأردك حديثاً إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين ؛ أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معمودتك ، حتى إنه فى ساعة الموت ، يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ؛ وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة ، باسم الأب ، والابن ، وروح القدس][٦٠] .

(٦٤) مقارنة الأديان المسيحية ص ١٤٦ .

إنجيـــل برنابـــا

ربما يعترض الكلام عن هذا الإنجيل ، سؤال يثور فى النفس ، عن الفائدة العلمية أو الغرض من تذييل القول فى المسيحية بالحديث عن وثيقة يدور الجدل حولها – نسبة وموضوعاً – فما قيمتها ، على الأقل ، بالنسبة لطرفين لهما علاقة هامة ومباشرة بالموضوع ، وهما : ذلك الذى يسلم بتحريف الديانة المسيحية عن إيمان أو علم ، أو ذلك الذى يسلم بصحتها عن إيمان ويقين ؟ فهى كوثيقة تثور حولها الشكوك ، غير صالحة للطرف الأول كحجة له ، ولا للثانى ملزمة له أو حجة عليه .

ورغم ما فى هذا السؤال من إشكالية منطقية لها وجه ووجاهة ، إلا أنه ربما يكون فى التبرير الذى سأسوقه ، إجابة مقبولة عن هذا السؤال ؛

فالذى دعانى إلى العناية بالحديث عن هذا الإنجيل فى ختام الكلام عن المسيحية ، رغم تسليمى بأن الجدل حول نسبته إلى برنابا أو إلى الوثائق المسيحية المعتمدة لم يحسم بعد ، أمران :

أما الأمر الأول :

فأمر يتعلق بالمنهج الذى التزمته ، وهو أننى حين اتخذت القرآن ، من منطلق علمى بحت ، كما أشرت إليه فى التمهيد للبحث ، معياراً للنقد والتمييز بين الملة والنحلة فى الأديان الثلاثة، اعتبرت أنه من العوامل التى لها تأثير فى تقدير القيمة العلمية لأى وثيقة تتصل بتلك الأديان من حيث الخطأ والصواب فى النسبة والموضوع أو السند والمتن ، هو مقدار اتفاقها أو عدم اتفاقها مع حقائق القرآن الكريم ، وبهذا الاعتبار ، فإنه إذا كان إنجيل « برنابا » أكثر قرباً من القرآن عن غيره من الوثائق المسيحية الأخرى ، فهو عندى أكثر وزناً وقيمة علمية من تلك الوثائق ، وهو وإن لم يكن يتميز عنها أو يتفوق عليها فى وثاقة السند والنسبة التاريخية ، فإنه لا شك يتميز عنها ويتفوق عليها من حيث قيمة المتن واتساقه مع

الحقائق الدينية التي عرضها القرآن ، وسيظل له هذا التميز والتفوق حتى يثبت ، يقينا أو رجحاناً لا شك فيه ، عدم صحة نسبته إلى « برنابا » حوارى عيسى عليه السلام وعندها فقط يمكن استبعاده كوثيقة مسيحية يعتد بها فى التاريخ للمسيحية ملة ونحلة ، ومبلغ علمى ، أن استبعاد انجيل « برنابا » منذ ظهر وحتى الآن ، لا يزال يتم بسلطان الكنيسة وليس بسلطان العلم .

وأما الأمر الثانى

فإنه كما كانت قيمة هذا الإنجيل من حيث نسبته التاريخية ، وهو ما يعرف عند العلماء بـ « السند » ، لا تختلف فى ميزان النقد العلمى ، عن نسبة الوثائق المعترف بها من الكنيسة ، إذ أن تلك الوثائق لازالت ، ومنذ القرن الأول ، عرضة للنقد والشك فى قيمتها التاريخية فى نسبتها إلى المسيح عليه السلام وحوارييه ، بل إن الشكوك لتتزايد فى قيمتها العلمية – سنداً ومتناً – بإزدياد حركة النقد العلمى والدينى وتقدم وسائله عند العلماء من المسيحيين أنفسهم .

ولذا فإن عنايتى بالكلام عن إنجيل برنابا ، استئناساً أو استشهاداً ، ينبغى أن لا ينظر إليها باعتبارها من قبيل المصادرة على المطلوب أو من قبيل إلزام الخصم بدليل لا يسلم بصحته ، وإنما ينبغى أن ينظر إليها من خلال غرضى فى إحداث نوع من النقاش فى موضوع البحث ، أرجو به إثارة نوع من التفكير أكثر إتساقاً ودعوة إلى وقفة أو استراحة للتأمل وإعادة النظر فى مسلمات ربما تبين أنها لا تستند على أساس علمى أو منطق دينى صحيح . وهذا الغرض ، الذى سبق أن ألمحت إليه فى صدر الكلام عن المسيحية إذا أضفنا إليه ما قلناه فى الأمر الأول ، أتصور أنه يكفى ، ليكون مبرراً منطقياً ومسوغاً مقبولاً للكلام عن إنجيل « برنابا » .

وبعد ، فإنه إذا كانت الجريمة الكاملة لم تُوجد بعد كما يقال ، فإنه بالرغم من اجتهاد رجال الكنيسة منذ مؤتمر نيقية فى إخماد كل صوت يعارض ما قد توصلوا إليه من قرارات ، ورغم إعدامهم لكل مخالف لهم سواء كان إنساناً أو كتاباً ، فان صوت الحق أقوى من صوت الباطل مهما علا .

فقد ظهر إنجيل برنابا ليكون شاهداً على الحق من جهة ، وعلى وضع الأناجيل الأخرى وتحريفها من جهة أخرى .

وبرنابا هو أحد الحواريين كما جاء فى هذا الإنجيل أو هو أحد رسل المسيح كما ورد فى « أعمال الرسل » .

ولقد كان هذا الإنجيل معروفاً فى العصور المتقدمة للمسيحية ولكنه كان من الكتب الدينية التى حرمت الكنيسة قراءتها ، فقد أصدر البابا جلاسيوس الأول سنة ٤٩٢ م أمراً يعد فيه الكتب المحرمة ومنها إنجيل برنابا .

ولكن مع هذا فقد أمكن لذلك الإنجيل أن ينجو من الهلاك ويتداوله بعض الناس سراً إلى أن استقرت نسخة منه فى مكتبة البلاط الملكى فى فينا ولا زالت بها حتى الآن .

وقد ترجم هذا الإنجيل إلى العربية فى مطلع القرن العشرين الدكتور خليل سعادة ، ونشره السيد محمد رضا[٦٥] .

تعاليمه :

١ - يسوع أنكر ألوهيته وكونه ابن الله وذلك على مرأى ومسمع من جمهور عظيم .

٢ - الابن الذى عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة الله إنما هو إسماعيل لا إسحق كما يدعى اليهود .

٣ - بشر عيسى عليه السلام برسالة محمد ﷺ ، وذكر محمداً باللفظ الصريح فى مواضع كثيرة من إنجيله ، وقال : إن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً فوق بابها بأحرف من نور نصها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

٤ - أن عيسى لم يصلب وإنما الذى صلب هو يهوذا الخائن .

٥ - أن عيسى أقر الختان وحرم الخنزير .

ويعنينا الآن ذكر ما قاله برنابا فى المسائل التى أدخلها بولس فى المسيحية وأقرتها الكنيسة كأصول اعتقادية ، وهى : **عقيدة التثليث أو ألوهية عيسى وعقيدة الصلب أو التكفير** ، ولعل هذا كان الدافع لبرنابا لكتابة إنجيله ، حيث يقول فى مقدمة إنجيله :

« أيها الأعزاء ، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن

---

(٦٥) انظر مقدمة المحقق والمترجم لإنجيل برنابا - نشر دار القلم ط٢ الكويت ١٩٨٣ م ، ففيه مزيد من الضوء والفائدة فيما قلناه تبريراً للحديث عن إنجيل برنابا « المؤلف » .

الله ، ورافضين الختان الذى أمر الله به دائماً ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل فى عدادهم أيضاً بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته وسمعته أثناء معاشرتى ليسوع لكى تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا فى دينونة الله ، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً »(٦٦) .

عقيدة التثليث أو القول بألوهية عيسى :

ومن العجيب أن القول بألوهية عيسى ظهر فى حياته وقام عيسى بتفنيده وإبطاله وتبرأ من المرجفين به ، ووجه العجب أن الأباطيل أو الأساطير الدينية حول الرسول وسيرته ، تظهر عادة بعد عصره ، أما مع عيسى ، فلكونه كان أمراً عجيباً فى مولده وفى معجزاته ، وفى ختام حياته على الأرض بالإضافة للمناخ الفكرى والدينى المشبع بالوثنية والأساطير الذى ظهر فيه عيسى عليه السلام ، كل هذا صنع من عيسى عليه السلام أسطورة قاومها فى حياته ، وما لبث أن رفع حتى طغت على القلوب واستعلت على العقول ، وأصبح من يقترب منها بالنقد أو المناقشة عرضة للقتل والحرق ، أو السخرية والاستهزاء ، وكان هذا هو حظ برنابا ، رغم أن إنجيله أقرب الأناجيل اتساقاً مع المنطق الدينى والعقلى على حد سواء ، ولكن هذا هو شأن الأسطورة أو الخرافة حين تغشى البصيرة فترى الباطل حقاً ، أو الحق باطلاً .

وإليكم الوقائع كما ذكرها برنابا حول القول بألوهية عيسى والعوامل التى ساعدت على إنتشارها .

١ – معجزات عيسى وأثرها فى نشر فكرة ألوهيته :

معلوم أن عيسى عليه السلام أوتى معجزات كثيرة ذكرها القرآن فى قوله تعالى :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ

(٦٦) ١ : ٣ .

﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٦٧)

فكان لهذه المعجزات ، التى يتفق فيها القرآن مع الأناجيل الأربعة ، أثر فى افتتان كثير من الناس بعيسى واعتقادهم بعدم بشريته ، ومن النص الآتى يتبين لنا كيف أن عيسى توجس خيفة من أثر هذه المعجزات ، يقول برنابا :

« ونزل يسوع فى السنة الثانية من وظيفته النبوية من أورشليم وذهب إلى تاييبه ، فلما اقترب من باب المدينة كان أهل المدينة يحملون إلى القبر إبناً وحيداً لأمه الأرملة ، وكان كل أحد ينوح عليه ، فلما وصل يسوع علم الناس أن الذى جاء إنما هو يسوع نبى الجليل ، فلذلك تقدموا وتضرعوا إليه لأجل الميت طالبين أن يقيمه لأنه نبى ، وفعل تلاميذه كذلك ، فخاف يسوع كثيراً ووجه نفسه لله وقال : خذنى من العالم يارب لأن العالم مجنون وكادوا يدعوننى إلهاً . ولما قال ذلك بكى »(٦٨) .

٢ – الاعتقادات السائدة :

ثم ساعدت الاعتقادات السائدة لدى اليهود والرومان على نشر وتقبل القول بألوهية عيسى يقول برنابا : « **كان جيش الرومان فى ذلك الوقت فى اليهودية ، لأن بلادنا كانت خاضعة لهم بسبب خطايا أسلافنا ، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئاً جديداً فيه نفع للشعب إلهاً ويعبدوه فلما كان بعض هؤلاء الجنود فى تايين وبخوا واحداً بعد آخر قائلين : لقد زاركم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون ؟ حقاً لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل ما لنا ، وأنتم تنظرون كم نخشى آلهتنا لأننا نعطى تماثيلهم أفضل ما عندنا .**

فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام حتى أثار شغباً بين شعب تايين لكن يسوع لم يمكث فى تايين بل تحول ليذهب إلى كفر ناحوم ، وبلغ الشقاق فى تايين مبلغاً قال معه قوم : إن الذى زارنا إنما هو إلهنا .

وقال آخرون : إن الله لا يرى فلم يره أحد حتى ولا موسى عبده ، فليس هو الله بل بالحرى ابن الله .

(٦٧) آل عمران : ٤٩ .
(٦٨) ٤٧ : ٧٣ – ٧٤ .

وقال آخرون : إنه ليس الله ولا إبن الله ، لأنه ليس لله جسد فيلد بل هو نبى عظيم من الله » ...(٦٩)

« وحدث فى هذا الزمن اضطراب عظيم فى اليهودية كلها لأجل يسوع لأن الجنود الرومانية أثارت بعمل الشيطان العبرانيين قائلين : إن يسوع هو الله قد جاء لينقذهم ، فحدث بسبب ذلك فتنة كبرى حتى أن اليهود كلها تدججت بالسلاح مدة الأربعين يوماً ، فقام الابن على الأب والأخ على الأخ لأن فريقاً قال : إن يسوع هو الله قد جاء إلى العالم ، وقال فريق آخر كلا هو إبن ، وقال آخرون : كلا لأنه ليس لله شبه بشرى ولذلك لا يلد ، بل إن يسوع الناصرى نبى الله . وقد نشأ هذا عن الآيات العظيمة التى فعلها يسوع »(٧٠) .

٣ - عيسى يفند بنفسه دعوى ألوهيته :

« الحق أقول لكم متكلماً من القلب إنى أقشعر لأن العالم سيدعونى إلهاً وعلى أن أقدم لأجل هذا حساباً ، لعمر الله الذى نفسى واقفة فى حضرته إنى رجل فان كسائر الناس على أنى وإن أقامنى الله نبياً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء وإصلاح الخطاة خادم الله وأنتم شهداء على هذا »(٧١) .

ثم يردد عيسى على حجج من ألهوه بسبب الآيات التى أظهرها الله على يديه فيقول : « إن موسى حول بعصاه البحر دماً ، والغبار براغيث ، والندى زوبعة ، والنور ظلاماً ، أرسل الضفاضع والجرذان على مصر فغطت الأرض ، وقتل الأبكار وشق البحر وأغرق فيه فرعون ، ولم أفعل شيئاً من هذه ، وكل يعترف بأن موسى إنما هو الآن رجل ميت .

أوقف يشوع الشمس وشق الأردن ، وهما مما أفعله الآن ، وكل يعترف بأن يشوع إنما هو الآن رجل ميت .

وأنزل إيليا النار من السماء عياناً وأنزل المطر ، وهما مما لم أفعله ، وكل يعترف بأن إيليا إنما هو بشر .

---

(٦٩) ٤٨ : ٧٤ - ٧٥ .

(٧٠) ٩١ : ١٣٩ .

(٧١) ٥٢ : ٨٢ وانظر المائدة : ١١٥ - ١١٧ ، وهي الآيات التى تتحدث عن الحساب الذى سيقدمه عيسى عن هذه الدعوى .

كثيرون آخرون من الأنبياء والأطهار وأخلاء الله فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين لا يعرفون إلهنا القدير الرحيم المبارك إلى الأبد[٧٢] .

« إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض ، أنى برئ من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر ، لأنى مولود من إمرأة وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام »[٧٣] .

عقيدة الصلب والتكفير :

وهذه سنكتفى بإيراد الفصل الختامى لحياة عيسى على الأرض كما أوردها برنابا دون حذف أو إيجاز ، حتى نستوعب الصورة الحقيقية لنهاية عيسى وكيف كانت هذه النهاية هى الأخرى سبباً فى فتنة كثير من الناس ولكثير من حوارييه .

فبعد أن ذكر برنابا مؤامرة شيوخ بنى إسرائيل وأحبارهم على قتل عيسى عليه السلام والكيد له لدى السلطة الرومانية واستعدائها عليه ، وخيانة تلميذه يهوذا الأسخريوطى الذى قاد الشرطة الرومانية للقبض على عيسى ، قال :

« ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع سمع يسوع دنوجم غفيرة فلذلك أنسحب إلى البيت خائفاً وكان الأحد عشر نياماً فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله إلى الأبد .

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياماً ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا وأجبنا ، أنت يا سيد هو معلمنا أنسيتنا الآن . أما هو فقال مبتسماً هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الاسخريوطى وبينا كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهاً بيسوع من كل وجه . أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين ، ويوحنا الذى كان ملتفاً بملحفة من الكتان استيقظ

---

(٧٢) ٩٤ : ١٤٣ - ١٤٤ .
(٧٣) ٩٥ : ١٢ .

وهرب ، ولما أمسكه جندى بملحفة الكتاب ترك ملحفة الكتان وهرب عرياناً ، لأن الله سمع دعاء يسوع وخلص الأحد عشر من الشر .

فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه ساخرين منه لأنه أنكر وهو صادق أنه هو يسوع ، فقال الجنود مستهزئين به يا سيدى لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكاً على إسرائيل ، وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة ، أجاب يهوذا ؛ لعلكم جننتم ، إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصرى كأنه لص ، فأتوثقوننى أنا الذى أرشدتكم لتجعلونى ملكاً . حينئذ خان الجنود صبرهم وشرعوا يمتهنون يهوذا بضربات ورفسات وقادوه بحنق إلى أورشليم . وتبع يوحنا وبطرس الجنود عن بعد ، وأكدا للذى يكتب أنهما شاهدا كل التحرى الذى تحراه بشأن يهوذا رئيس الكهنة ومجلس الفريسيين الذين اجتمعوا ليقتلوا يسوع ، فتكلم من ثم يهوذا كلمات جنون كثيرة حتى أن كل واحد أغرق فى الضحك معتقداً أنه بالحقيقة يسوع وأنه يتظاهر بالجنون خوفاً من الموت . لذلك عصب الكتبة عينيه بعصابة وقالوا له مستهزئين ، يا يسوع نبى الناصريين [فإنهم هكذا كانوا يدعون المؤمنين بيسوع] قل لنا من ضربك ، ولطموه وبصقوا فى وجهه . ولما أصبح الصباح التأم المجلس الكبير للكتبة وشيوخ الشعب ، وطلب رئيس الكهنة مع الفريسيين شاهد زور على يهوذا معتقدين أنه يسوع فلم يجدوا مطلبهم ، ولماذا أقول أن رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع ، بل إن التلاميذ كلهم مع الذى يكتب اعتقدوا ذلك ، بل أكثر من ذلك أن أم يسوع العذراء المسكينة مع أقاربه وأصدقائه اعتقدوا ذلك ، حتى إن حزن كل واحد كان يفوق التصديق ، لعمر الله إن الذى يكتب نسى كل ما قاله يسوع : من أنه يرفع من العالم وأن شخصاً آخر سيعذب باسمه ، وأنه لا يموت إلا وشك نهاية العالم ، لذلك ذهب [الذى يكتب] مع أم يسوع ومع يوحنا إلى الصليب . فأمر رئيس الكهنة أن يؤتى بيسوع موثوقاً أمامهم وسأله عن تلاميذه وعن تعليمه فلم يجب يهوذا بشئ فى الموضوع كأنه جن ، حينئذ استحلفه رئيس الكهنة بإله إسرائيل الحى أن يقول له الحق . أجاب يهوذا : لقد قلت لكم أنى يهوذا الأسخريوطى الذى وعد أن يسلم إلى أيديكم يسوع الناصرى ، أما أنتم فلا أدرى بأى حيلة قد جننتم ، لأنكم تريدون بكل وسيلة أن أكون أنا يسوع ؟! أجاب رئيس الكهنة : أيها الضال المضل لقد ضللت كل إسرائيل بتعليمك وآياتك الكاذبة مبتدئاً من الجليل حتى أورشليم هنا ، أفيخيل لك الآن أن تنجو من العقاب الذى تستحقه

والذى أنت أهل له بالتظاهر بالجنون لعمر الله إنك لا تنجو منه ، وبعد أن قال هذا أمر خدمه أن يوسعوه لطماً ورفساً لكى يعود عقله إلى رأسه ، ولقد أصابه من الاستهزاء على يد خدم رئيس الكهنة ما يفوق التصديق ، لأنهم اخترعوا أساليب جديدة بغيرة ليفكهوا المجلس ، فألبسوه لباس مشعوذ وأوسعوه ضرباً بأيديهم وأرجلهم حتى أن الكنعانيين أنفسهم لو رأوا ذلك المنظر لتحننوا عليه ، ولكن قست قلوب رؤساء الكهنة ، والفريسيين وشيوخ الشعب على يسوع إلى حد سروا معه أن يروه معاملاً هذه المعاملة معتقدين أن يهوذا هو بالحقيقة يسوع . ثم قادوه بعد ذلك موثوقاً إلى الوالى الذى كان يحب يسوع سراً ، ولما كان يظن أن يهوذا هو يسوع ، أدخله غرفته وكلمه سائلاً إياه لأى سبب قد سلمه رؤساء الكهنة والشعب إلى يديه . أجاب يهوذا : لو قلت لك الحق لما صدقتنى ، لأنك قد تكون مخدوعاً كما خدع الكهنة والفريسيون . أجاب الوالى [ظاناً أنه أراد أن يتكلم عن الشريعة] : ألا تعلم أنى لست يهودياً ولكن الكهنة وشيوخ الشعب قد سلموك ليدى ، فقل لنا الحق لكى أفعل ما هو عدل ، لأن لى سلطاناً أن أطلقك ؛ وأن آمر بقتلك . أجاب يهوذا : صدقنى يا سيد إنك إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلماً كبيراً لأنك تقتل بريئاً ، لأنى أنا يهوذا الأسخريوطى لا يسوع الذى هو ساحر فحولنى هكذا بسحره . فلما سمع الوالى هذا تعجب كثيراً حتى أنه طلب أن يطلق سراحه ، لذلك خرج الوالى وقال مبتسماً : من جهة واحدة على الأقل لا يستحق هذا الإنسان الموت بل الشفقة ، ثم قال الوالى : إن هذا الإنسان يقول إنه ليس يسوع بل يهوذا الذى قاد الجنود ليأخذوا يسوع ، ويقول إن يسوع الجليلى قد حوله هكذا بسحره ، فإذا كان هذا صدقاً يكون قتله ظلماً كبيراً لأنه يكون بريئاً ولكن إذا كان هو يسوع وينكر أنه هو ، فمن المؤكد أنه قد فقد عقله ، ويكون من الظلم قتل مجنون . حينئذ صرخ رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب مع الكتبة والفريسيين بصخب قائلين : إنه يسوع الناصرى فإننا نعرفه ، لأنه لو لم يكن هو المجرم لما أسلمناه ليدك ، وليس هو بمجنون بل بالحرى خبيث لأنه بحيلته هذه يطلب أن ينجو من أيدينا ، وإذا نجا تكون الفتنة التى يثيرها شراً من الأولى . أما بيلاطس [وهو اسم الوالى] فلكى يتخلص من هذه الدعوى قال : إنه جليلى وهيرودس هو ملك الجليل ، فليس من حقى الحكم فى هذه الدعوى ، فخذوه إلى هيرودس . فقادوا يهوذا إلى هيرودس الذى طالما تمنى أن يذهب يسوع إلى بيته ، ولكن يسوع لم يرد قط أن يذهب إلى بيته ، لأن هيرودس كان من الأمم وعبد الآلهة الباطلة الباطلة عائشاً بحسب عوائد الأمم النجسة ،

فلما قيد يهوذا إلى هناك سأله هيرودس عن أشياء كثيرة لم يحسن يهوذا الإجابة عنها منكراً أنه هو يسوع . حينئذ سخر به هيردوس مع بلاطه كله وأمر أن يلبس ثوباً أبيض كما يلبس الحمقى ، ورده إلى بيلاطس قائلاً له : لا تقصر فى إعطاء العدل بيت إسرائيل ، وكتب هيردوس هذا لأن رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين أعطوه مبلغاً كبيراً من النقود . فلم علم الوالى من أحد خدم هيردوس أن الأمر هكذا تظاهر بأنه يريد أن يطلق سراح يهوذا طمعاً فى نيل شئ من النقود فأمر عبيده الذين دفع لهم الكتبة نقوداً ليقتلوه أن يجلدوه ولكن الله الذى قدر العواقب أبقى يهوذا للصليب ليكابد ذلك الموت الهائل الذى كان أسلم إليه آخر ، فلم يسمح بموت يهوذا تحت الجلد مع أن الجنود جلدوه بشدة سال معها جسمه دماً ولذلك ألبسوه ثوباً قديماً من الأرجوان تهكماً قائلين : يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوج ، فجمعوا شوكاً وصنعوا أكليلاً شبيهاً بأكاليل الذهب والحجارة الكريمة التى يضعها الملوك على رؤوسهم ، ووضعوا أكليل الشوك على رأس يهوذا ووضعوا فى يده قصبة كصولجان وأجلسوه فى مكان عال ، ومر من أمامه الجنود حانين رؤوسهم تهكماً مؤدين له السلام كأنه ملك اليهود ، وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات التى اعتاد إعطاءها الملوك الجدد ، فلما لم ينالوا شيئاً ضربوا يهوذا قائلين : كيف تكون إذاً متوجاً أيها الملك إذا كنت لا تهب الجنود والخدم ؟ فلما رأى رؤساء الكهنة مع الكتبة والفريسيين أن يهوذا لم يمت من الجلد ولما كانوا يخافون أن يطلق بيلاطس سراحه ، أعطوا هبة من النقود للوالى فتناولها وأسلم يهوذا للكتبة والفريسيين كأنه مجرم يستحق الموت ، وحكموا بالصلب على لصين معه . فقادوه إلى جبل الجمجمة حيث اعتادوا شنق المجرمين وهناك صلبوه عرياناً مبالغة فى تحقيره ، ولم يفعل يهوذا شيئاً سوى الصراخ : يا الله لماذا تركتنى فإن المجرم قد نجا أما أنا فأموت ظلماً .

الحق أقول إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه هو يسوع ، لذلك خرج بعضهم من تعليم يسوع معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً ، وأنه إنما فعل الآيات التى فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال : أنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم . فالذين ثبتوا راسخين فى تعليم يسوع حاق بهم الحزن إذ رأوا من يموت شبيهاً بيسوع كل الشبه حتى أنهم لم يذكروا ما قاله يسوع ، وهكذا ذهبوا فى صحبة أم يسوع إلى جبل الجمجمة ولم يقتصروا على

حضور موت يهوذا باكين على الدوام ، بل حصلوا بواسطة نيقوديموس ويوسف الآثاريماثيائى من الوالى على جسد يهوذا ليدفنوه ، فأنزلوه من ثم عن الصليب ببكاء لا يصدقه أحد ، ودفنوه فى القبر الجديد ليوسف بعد أن ضمخوه بمئة رطل من الطيوب .

ورجع كل إلى بيته ومضى الذى يكتب ويوحنا ويعقوب أخوه مع أم يسوع إلى الناصرة . أما التلاميذ الذين لم يخافوا الله فذهبوا ليلاً وسرقوا جسد يهوذا وخبأوه وأشاعوا أن يسوع قام ، فحدث بسبب هذا اضطراب فأمر رئيس الكهنة ألا يتكلم أحد عن يسوع الناصرى وإلا كان تحت عقوبة الجرم فحصل اضطهاد عظيم فرجم وضرب ونفى من البلاد كثيرون لأنهم لم يلازموا الصمت فى هذا الأمر . وبلغ الخبر الناصرة كيف أن يسوع أحد أهالى مدينتهم قام بعد أن مات على الصليب ، فضرع الذى يكتب إلى أم يسوع أن ترضى فتكف عن البكاء لأن ابنها قام ، فلما سمعت العذراء مريم هذا قالت باكية : لنذهب إلى أورشليم لننشد ابنى فإنى إذا رأيته مت قريرة العين . فعادت العذراء إلى أورشليم مع الذى يكتب ويعقوب ويوحنا فى اليوم الذى صدر فيه أمر رئيس الكهنة . ثم إن العذراء التى كانت تخاف الله أوصت الساكنين معها أن ينسوا ابنها مع أنها عرفت أن أمر رئيس الكهنة ظلم وما كان أشد انفعال كل أحد ، والله الذى يبلو قلوب البشر يعلم أننا فنينا بين الأسى على موت يهوذا الذى كنا نحسبه يسوع معلمنا وبين الشوق إلى رؤيته قائماً . وصعد الملائكة الذين كانوا حراساً على مريم إلى السماء الثالثة حيث كان يسوع فى صحبة الملائكة وقصوا عليه كل شئ ، لذلك ضرع يسوع إلى الله أن يأذن له بأن يرى أمه وتلاميذه فأمر حينئذ الرحمن ملائكته الأربعة المقربين اللذين هم جبريل وميخائيل ورافائيل وأوريل أن يحملوا يسوع إلى بيت أمه ، وأن يحرسوه هناك مدة ثلاثة أيام متوالية ، وألا يسمحوا لأحد أن يراه خلا الذين آمنوا بتعليمه . فجاء يسوع محفوفاً بالسناء إلى الغرفة التى أقامت فيها مريم العذراء مع أختيها ومرثا ومريم المجدلية والعازر والذى يكتب ويوحنا ويعقوب وبطرس ، فخروا من الهلع كأنهم أموات ، فأنهض يسوع أمه والآخرين عن الأرض قائلاً : لا تخافوا لأنى أنا يسوع ولا تبكوا فانى حى لا ميت ، فلبث كل منهم زمناً طويلاً كالمخبول لحضور يسوع ، لأنهم اعتقدوا اعتقاداً تاماً بأن يسوع مات ، فقالت حينئذ العذراء باكية : قل لى يا بنى ، لما سمح الله بموتك ملحقاً العار بأقربائك أخلائك وملحقاً العار بتعليمك وقد أعطاك قوة على إحياء الموتى فإن كل من يحبك كان كميت .

أجاب يسوع معانقاً أمه : صدقيني ياأماه لأني أقول لك بالحق أني لم أمت قط ، لأن الله قد حفظني إلى قرب انقضاء العالم ، ولما قال هذا رغب إلى الملائكة الأربعة أن يظهروا ويشهدوا كيف كان الأمر فظهر من ثم الملائكة كأربع شموس متألقة حتى أن كل أحد خر من الهلع ثانية كأنه ميت . فأعطى حينئذ يسوع الملائكة أربع ملاء من كتان ليستروا بها أنفسهم لتتمكن أمه ورفاقها من رؤيتهم وسماعهم يتكلمون ، وبعد أن أنهض كل واحد منهم عزاهم قائلا : إن هؤلاء هم سفراء الله جبريل الذي يعلن أسرار الله ، وميخائيل الذي يحارب أعداء الله ، ورافائيل الذي يقبض أرواح الميتين ، وأوريل الذي ينادي إلى دينونة الله في اليوم الآخر . ثم قص الملائكة الأربعة على العذراء كيف أن الله أرسل إلى يسوع وغير صورة يهوذا ليكابد العذاب الذي باع له آخره حينئذ قال الذي يكتب : يا معلم أيجوز لي أن أسألك الآن كما كان يجوز عندما كنت مقيماً معنا ؟ أجاب يسوع : سل ما شئت يا برنابا أجبك . فقال حينئذ الذي يكتب : يا معلم إذا كان الله رحيماً فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتاً ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت ، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس الله .
أجاب يسوع : صدقني يا برنابا إن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً لأن الله يغضب من الخطيئة ، فكذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالمياً أراد الله البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم ، فلما كان الناس قد دعوني الله وابن الله على أني كنت بريئاً في العالم ، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب لكي لا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ، وبعد أن تكلم يسوع بهذا قال : إنك لعادل أيها الرب إلهنا لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية .

والتفت يسوع إلى الذي يكتب وقال : يا برنابا عليك أن تكتب إنجيلي حتماً وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم ، واكتب أيضاً ما حل بيهوذا ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق . حينئذ أجاب الذي يكتب : أني لفاعل ذلك إن شاء الله يا معلم ، ولكن لا أعلم ما حدث ليهوذا لأني لم أر كل شئ . أجاب يسوع : ههنا يوحنا وبطرس اللذان قد عاينا كل شئ فهما

يخبرانك بكل ما حدث . ثم أوصانا يسوع أن ندعو تلاميذه المخلصين ليروه ، فجمع حينئذ يعقوب ويوحنا التلاميذ السبعة مع نيقوديموس ويوسف وكثيرين آخرين من الإثنين والسبعين وأكلوا مع يسوع ، وفى اليوم الثالث قال يسوع : اذهبوا مع أمى إلى جبل الزيتون لأننى أصعد من هناك أيضاً إلى السماء وسترون من يحملنى . فذهب الجميع خلا خمسة وعشرين من التلاميذ الإثنين والسبعين الذين كانوا قد هربوا إلى دمشق من الخوف . وبينا كان الجميع وقوفاً للصلاة جاء يسوع وقت الظهيرة مع جمع غفير من الملائكة الذين كانوا يسبحون الله ، فطاروا فرقاً من سناء وجهه فخروا على وجوههم على الأرض ولكن يسوع أنهضهم وعزاهم قائلاً : لا تخافوا أنا معلمكم ، ووبخ كثيرين من الذين اعتقدوا أنه مات وقام قائلاً : أتحسبوننى أنا والله كاذبين ، لأن الله وهبنى أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم كما قد قلت لكم ، الحق أقول إنى لم أمت بل يهوذا الخائن ، احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل وفى العالم كله لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها . وبعد أن قال هذا صلى لله لأجل خلاص المؤمنين وتجديد الخطأة ، فلما انتهت الصلاة عانق أمه قائلاً : سلام الله يا أمى ، توكلى على الله الذى خلقك وخلقنى ، وبعد أن قال هذا التفت إلى تلاميذه قائلاً : لتكن نعمة الله ورحمته معكم . ثم حملته الملائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء .

وبعد أن انطلق يسوع تفرقت التلاميذ فى أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل كما هى الحال دائماً . فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن يسوع مات وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام . وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله وقد خدع فى عدادهم بولس ، وأما نحن فإنما نبشر بما كتبت الذين يخافون الله ليخلصوا فى اليوم الأخير لدينونة الله . آمين(٧٤) .

هذا هو ما قاله برنابا فى عقيدة التثليث والصلب ، ونذكركم أخيراً بما يقوله الحق سبحانه وتعالى عن عيسى ومعجزاته :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ

(٧٤) الفصل : ٢١٥ - ٢٢٢ .

عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ
وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ
إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ [٧٥]

وعن عبوديته يقول تعالى :

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ
ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن
يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ
إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ
كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [٧٦]

---

(٧٥) المائدة : ١١٠
(٧٦) المائدة : ٧٢ — ٧٥

وعن نهايته يقول تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[77]

أما عن شهادته يوم القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

(٧٧) النساء : ١٥٧ – ١٥٩ .

﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ [78]

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [79]

وبعد ، فإنه فى ختام القول عن اليهودية والمسيحية فإنه وإن كان القول بزوال عنصر الملة فيها أو على الأقل طغيان عنصر النحلة فيهما ، يعتبر قولا صحيحا ، فإننى أجد من المفيد أن أذكّر بما سبق أن أشرت إليه فى المقدمة ، من أنه مع التسليم بتحريف التوراة والإنجيل وما يترتب على ذلك من سقوط عصمتهما وقداستهما وعدم إمكان تمييز الملة من النحلة فيهما بيقين إلا بالإعتماد على مصدر خارجى ثبتت عصمته ، فأنه لا يعنى ذلك القطع بتكذيب كل ما ورد بهما جملة وتفصيلاً ، لأنه ربما ورد التكذيب على ما قد يكون وحياً أو التصديق بما ليس بوحى ، والمنهج الصحيح فى موقفنا منهما ، هو المنهج الذى رسمه الرسول ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى هريرة ، قال « قال رسول الله ﷺ :

« لا تصدقوا أهل الكتاب بما يحدثونكم عن الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، لأن الله تعالى أخبر أنهم كتبوا بأيديهم وقالوا

(٧٨) المائدة : ١١٦ - ١١٩ .
(٧٩) مريم : ٣٤ - ٣٦ .

هذا من عند الله » وفى رواية أخرى للبخارى عن أبى هريرة أنه قال : « **كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد** » (٨٠).

وبرواية أبى داود عن أبى نملة الأنصارى ، قال :

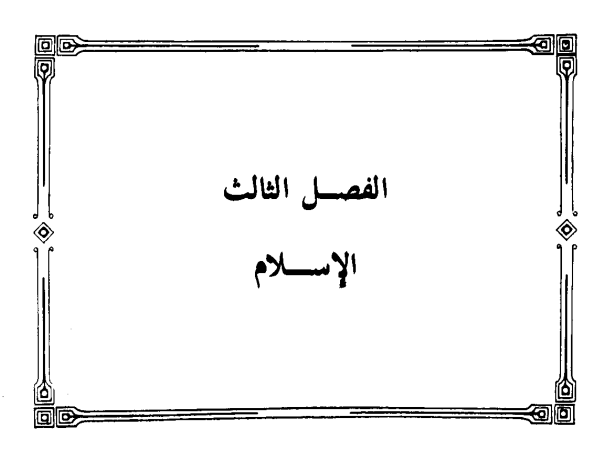
« بينما هو جالس عند رسول الله وعنده رجل من اليهود ، مُرَّ بجنازة فقال : **يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم ، قال اليهودى ، إنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله ورسوله ، فإن كان باطلاً لم تصدقوه وإن كان حقاً لم تكذبوه** »(٨١) .

---

(٨٠) البخارى جـ٨ ص ١٢٩ كتاب تفسير سورة البقرة وانظر كذلك كتاب الإعتصام وكتاب التوحيد .

(٨١) جامع الأصول فى أحاديث الرسول – لابن الأثير – تحقيق عبدالقادر الأرناؤوطى ، جـ١٠ ص ١٩٨ – دار البيان بيروت ١٩٧٢ م .





الفصل الثالث

الإسلام



مدخــــل تاريخـــى

قبل الكلام عن الإسلام ، يجدر بنا أن نتعرف بإيجاز على البيئة التى بزغ فيها نجم الإسلام .

لم يكن للجزيرة العربية مهد الرسالة . قبل الإسلام وزن حضارى أو اقتصادى اللهم إلا أهميتها كطريق للتجارة بين الشرق والغرب ووقوعها بين أعظم دولتين فى هذا الوقت هما الفرس شرقاً والروم غرباً .

والجزيرة العربية منطقة شاسعة تقع فى الجنوب الغربى من آسيا ، يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، البحر الأحمر غرباً ، والمحيط الهندى جنوباً ، والخليج العربى وبحر عمان شرقاً ، ويحدها شمالاً بادية الشام .

ليس فيها أنهار دائمة الجريان ، ولكن أودية يجرى فيها الماء حيناً ويجف حيناً ، وسطها صحراء شاسعة بها قليل من الآبار والعيون ، وأماكن الخصب فيها كجزر متباعدة فى بحر من الرمال ، والسير فيها شاق عسير لطبيعة أرضها الوعرة ، وأغلب سكانها من البدو الرحل الذين يعتمدون فى معيشتهم على ماشيتهم وأهمها الإبل ، وتعيش ماشيتهم على الكلأ الذى ينبت على الأمطار الشتوية القليلة ، ومن هنا كان للمطر أثر كبير على حياتهم الاجتماعية والسياسية ، فما أن يقل المطر وتجدب الأرض من الكلأ حتى يشتد بهم الضيق والقلق ويندفعون إلى السلب والنهب ، فتغير القبائل القوية على القبائل الضعيفة ، ثم يغير الأقوياء بعضهم على بعض ، وقد ينتهى بهم الأمر إلى أن تحارب بطون القبيلة بعضها بعضاً فى صراع مميت من أجل الحياة ، وفى هذا يقول شاعرهم :

وأحياناً على بكـر أخينـا ⠀⠀ إذا لم نجد إلا أخانـــا

وكان لهذه الطبيعة القاسية أثرها فى العمران والسياسة والحضارة ، فمن حيث العمران كان قليل الانتشار يتركز على أطراف الجزيرة فى اليمن جنوباً وتخومها الملاصقة للفرس شرقاً والروم غرباً وبعض قرى متناثرة فى وسطها أهمها

مكة والطائف ويثرب التى سميت فيما بعد بالمدينة ، وكان لهذا أثره فى انعدام الوحدة السياسية بين سكانها حيث كانت القبيلة هى الأساس الذى يرتكز عليه نظامهم الاجتماعى والسياسى ، فوطنية البدوى وطنية قبلية لا وطنية جغرافية لا يؤمن ولا يدين إلا بتراث قبيلته وتقاليدها وعقائدها ، مثله الأعلى التعصب لقبيلته والمفاخرة بأمجادها ، ولما كانت القبائل فى نزاع وحروب مستمرة كما كانوا لا يقرون فى مكان واحد لم يتح لهم هذا الشكل الاجتماعى إقامة وحدة سياسية أو إقامة حضارة ، كما كان لهذا أثره فى الحركة العلمية والثقافية حيث كانت الأمية هى السمة الغالبة على السكان ، ويكفى أن نعلم أن الرسول ﷺ بعث ولم يكن بمكة وهى أعظم مركز أدبى وتجارى وسط الجزيرة العربية أكثر من سبعة عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، أما من حيث الديانة ، فالوثنية كانت السائدة فى وسط الجزيرة ، أما اليهودية والنصرانية فقد اقتصر وجودهما على حواف الجزيرة ولم يكن فى وسطها إلا مستعمرة يهودية فى يثرب أقامها اليهود الفارين من بطش الرومان ، ولما كان اليهود منغلقين على أنفسهم ينظرون إلى العرب نظرة استعلاء كما يخبرنا القرآن على لسانهم قولهم :

﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (1)

فقد حال هذا الانغلاق والاستعلاء من انتشار اليهودية بين العرب ، أما النصرانية فكانت منقسمة على نفسها بين فرق متناحرة يكفر بعضها بعضاً ، ولم يتحمس العرب للدخول فيها لأنها كانت معقدة غير مفهومة من العربى الذى يميل إلى البساطة والتحرر .

كانت المسيحية فى ذلك الزمان بما تحويه من تعقيدات ، وبما فيها من عقيدة التثليث وما يتصل بذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية بعيدة عن التأثير فى نفس العربى . وهكذا فلم تصادف المسيحية هوى فى نفوس العرب إلا قليل منهم على أطراف الجزيرة العربية .

يبقى أن نشير إلى علاقة العرب بالأمم المجاورة من الفرس والروم ، فنجد أن كلا الدولتين لم يكن لهما مطمع فى تلك الجزيرة القاحلة ، ولم يكن يعنيهما إلا تأمين حدودهما من غارات السلب والنهب التى يشنها البدو ، فعمد الفرس والروم

---

(1) آل عمران : ٧٥ .

إلى مساعدة بعض القبائل المجاورة لحدودهما على الاستقرار ليكونوا درءاً لهم ضد غارات البدو ، فتكونت إمارة الحيرة على نهر الفرات يدينون للفرس بالولاء والطاعة ، وقد تأثروا بعقيدة الفرس وحضارتهم ، وتكونت فى الشام على تخوم الرومان إمارة الغساسنة ، وقد تأثروا أيضاً بحضارة الروم وعقائدهم ، وقد كانت علاقة الحيرة وغسان انعكاساً لعلاقة العداء والحروب المستمرة بين الفرس والروم .

هذه بإيجاز ملامح الصورة العامة للعرب قبل ظهور الإسلام قصدنا بها التنبيه إلى الأثر الذى أحدثه الإسلام فى العرب وفى العالم كله .

معنى الإسلام :

والإسلام لغة : الطاعة والانقياد ؛

وعرفا : خص بالدين المنزل على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم رسول الله ، وخاتم رسله وأنبيائه ، لتبليغه للناس كافة .

أما كتابه فهو القرآن ، وهو خاتم الأديان ، قال تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[3]

نبذة عن رسول الإسلام

وأما رسوله ، فهو محمد ﷺ الذى ينتمى إلى أسرة عريقة بمكة المكرمة ، من قبيلة قريش والتى كان لها السيادة والشرف بين قبائل العرب ، لوجود الكعبة المشرفة ، وهى بيت العرب المقدس فى الجاهلية والإسلام ، فى كنفها ورعايتها ، والبطن الذى ينتمى إليه الرسول ﷺ من بطون قريش هو فرع بنى هاشم الذى

(٢) المائدة : ٣ .
(٣) آل عمران : ٨٥ .

امتاز على بطون قريش بمكانته الأدبية الرفيعة لما اختص به من خدمة الكعبة ورعايتها ، ويتصل نسب الرسول ﷺ بإسماعيل ابن إبراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول من السنة التى حدثت فيها الغزوة الفاشلة لأبرهة أمير اليمن على الكعبة المشرفة ويسمى عام الفيل ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾(٤)

وهذا العام يوافق فى أكثر الأقوال وثوقاً سنة ٥٧١ م .

نشأ الرسول ﷺ يتيماً فقيراً ، مات أبوه عبد الله قبل مولده بسبعة شهور ولم يترك له شيئاً يذكر ، وعن هذه النشأة يقول القرآن

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾(٥)

، وقد قضى طفولته المبكرة منذ مولده وحتى الرابعة من عمره فى حضانة مرضعة تدعى حليمة السعدية من قبيلة بنى سعد ببادية خارج مكة على عادة أشراف العرب فى تربية أبنائهم . ثم تولت أمه حضانته لكنه لم يستمتع طويلاً بحنان الأمومة فقد ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره فكفله جده عبد المطلب الذى لم يلبث أن مات والرسول ﷺ لم يتجاوز الثامنة من عمره ، فانتقل إلى بيت عمه عبد مناف الملقب بأبى طالب الذى أنزله من نفسه منزلة أعز أبنائه .

ويحدثنا التاريخ أن أول رحلة للنبى ﷺ خارج مكة ، كانت بصحبة عمه أبى طالب فى رحلته إلى الشام للتجارة سنة ٥٨٢ م ، ولم يبلغ الثانية عشر من

(٤) الفيل كاملة .
(٥) الضحى : ٦ .

عمره . وفى تلك الرحلة وقعت تلك الحادثة المشهورة التى كان فيها أول تنبؤ بمستقبل محمد ﷺ ، فقد رآه ناسك مسيحى يدعى بحيرا ووجد فيه السمات المنصوص عليها فى الكتب المقدسة أنها لنبى يبعث فى آخر الزمان ، ولهذا كان كثير من النساك والرهبان يترصدون ظهوره ، سواء فى ذلك اليهود أو النصارى حيث بشرت التوراة والإنجيل به ﷺ وفى هذا يقول القرآن :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٦)

لما تأكد بحيرة أن هذا هو النبى المنتظر طلب من أبى طالب أن يعود بابن أخيه سريعاً من حيث أتى وحذره من التراخى قائلاً له : إن هذا الصبى سيقوم بدور عظيم فى العالم أجمع وسيكون له شأن وأى شأن فارجع به على عجل وأسهر عليه من اليهود الذين قد يؤذونه لو علموا منه ما أعلم ، ولم يلبث أبو طالب أن أخذ بنصيحة الراهب وقفل راجعاً بابن أخيه خوفاً عليه وحرصاً .

ولم يرو التاريخ لنا رحلات أخرى للرسول خارج مكة إلى قبيل زواجه السيدة خديجة رضى الله عنها ، فقد قضى تلك الفترة يعمل فى رعى الأغنام ويساعد عمه فى أمر معيشته الذى لم يكن ميسور الحال لكثرة عياله .

ومما روى عن سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة أنه كانت له سمات شخصية وأخلاقية رفيعة جعلت منه فتى متميزاً بين أقرانه من فتيان قريش ، فلم يلج ما يلجون فيه من لهو ومجون وتنابذ بالألقاب والأحساب وغير ذلك من الأخلاق التى كانت من مميزات التكوين الطبقى والاجتماعى بمكة ، بل تميز بصفات وأخلاق خاصة حببت فيه الناس وجعلته موضع تقدير واحترام الجميع بمكة ، فلقبوه بالأمين . وهناك حادثة يرويها المؤرخون لها دلالتها على مكانة محمد ﷺ فى نفوس أشراف مكة وسادتها ، فقد حدث أنه لما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين من عمره أن جددت قريش بناء الكعبة ، ولما كانت الكعبة بمثابة المعبد المقدس للعرب جميعاً ، فقد حرصت القبائل على شرف الاشتراك فى ترميمها ، ولما بلغ العمل إعادة الحجر الأسود مكانه وقع الخلاف بينهم ، فكل قبيلة تريد الاستئثار بهذا

---

(٦) البقرة : ٨٩ .

الشرف ، وتدارك الشيوخ الأمر قبل أن تسيل الدماء أنهاراً ، واتفقوا على تحكيم أول داخل من باب شيبة المعروف الآن بباب السلام ، ولقد شاءت الأقدار أن يكون محمد ﷺ ، وما أن رآه المختصمون حتى صاحوا جميعاً فى فرح ورضا ، الأمين .. الأمين .. رضيناه حكماً ، وكان حقاً الأمين الحكيم حيث أسرع ببسط ردائه ووضع بيده الشريفة الحجر الأسود عليه ، ثم طلب من رؤساء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف الثوب وأن يرفعوه معاً إلى المستوى المطلوب ، وعندما وصلوا بالحجر إلى المكان المخصص له أخذ محمد ﷺ الحجر ووضعه مكانه ، وهكذا حقن محمد بفطنته وحنكته دماء الناس وحقق السلام بين القبائل ، كما نال حكمه الرضا والقبول من الجميع مما يؤكد لنا قدر محمد ومكانته عند قريش قبل بعثته عليه السلام .

ومما له دلالته فى هذا الشأن ، زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة وهى من أشرف نساء قريش وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وظلت خديجة زوجته الوحيدة طيلة حياتها ، وأنجب منها ولدين هما القاسم وعبد الله وأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وقد توفوا جميعاً فى حياته ما عدا فاطمة التى توفيت بعده بعدة شهور ، ولم ينجب الرسول غيرهم سوى إبراهيم من مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس عظيم القبط بمصر بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد توفى إبراهيم صغيراً فى حياة الرسول .

ظهر على الرسول قبل بعثته عزوفه عن الاندماج فى الحياة الاجتماعية ونزوعه إلى الهدوء والتأمل كما لفت إليه الأنظار بصدق الرؤيا فلا يحدث أحداً برؤيا رآها فى نومه إلا تحققت بمثل ما حدث به دقة ووضوحاً وكأنه يطالع فى نومه صحف الغيب ، وقبيل بعثته ظهر عليه الميل إلى البعد عن صخب الحياة ومشاغلها والخلوة بنفسه ، واختار مكاناً فى جبل حراء شمال مكة ، يقضى فيه ساعات أو أيام ، وفى ليلة باردة ساكنة سكون الصحراء التى تلف مكة ، وقد بلغ الرسول من عمره أربعين عاماً وبينما هو فى غار حراء يجول بفكره صفحة الكون ، حدث أول اتصال له مع ما وراء الكون ، وكان أول وحى تلقاه من السماء (إقرأ ...)[٧] وكان لهذه التجربة وقع شديد على محمد هز كيانه هزاً عنيفاً ، فلم يلبث بعد أن فصل عنه الوحى ، أن عاد مسرعاً فزعاً إلى زوجته التى هالها اضطرابه حتى حسبته مريضاً فلفته فى الفراش كما أراد ، وبعد أن هدأ روعه قص

---

(٧) الفلق : ١ .

عليها ما حدث مبدياً مخاوفه أن يكون هذا مس من الجن أو الشيطان فقالت له خديجة مهدئة ومواسية : « **كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر** » ، **وهذا من خديجة تلخيص مركز لصفات النبى التى اشتهر بها قبل بعثته ، لهذا فلا يمكن أن تكون نفس النبى مما يقبل إغواء الشيطان ووسوسته** ولكن غرابة الأمر جعلها تذهب بالرسول إلى ابن عمها ورقة بن نوفل المتنسك على دين النصرانية لعل عنده ما يفسر لهما ما حدث فلما سمع من الرسول ﷺ ، قال : « **يا محمد ، هذا هو الناموس الذى نزل على موسى يا ليتنى فيها جزعا ، ليتنى أكون حيا ، إذ يخرجك قومك** .

فقال الرسول ﷺ : أو مخرجى هم ؟!.

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وأن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

وقد وثق لنا البخارى تلك الفترة قبيل البعثة من حياة الرسول الروحية والفكرية فيروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت :

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد الليالى ذوات العدد – قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : إقرأ قال ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى : فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة . وكان إمرأ تنصر فى الجاهلية .. وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا بن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة ، يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة ، هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال الرسول ﷺ : أو مخرجى هم ؟! قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى(٨) .

بعد هذا الحدث العظيم فتر الوحى عن الرسول ﷺ حتى ملكه الحزن واليأس وداخله الشك والقلق ، وفى هذا الجو النفسى الذى بلغ بالنبى حد محاولة إلقاء نفسه من قمة حراء جاءته الجرعة الثانية التى لم تكن إلا نداء له بالاستعداد لتلقى النبأ العظيم فنزلت عليه آيات متتابعات :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ ﴾(٩)

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾(١٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾(١١)

وهيأ الرسول نفسه كما أمر فى انتظار القول الثقيل حتى أتاه التكليف النهائى بالدعوة وقد شارف عامه الرابع والأربعين سنة ٦١٢ م حين جاءه الأمر بالتبليغ فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ ﴾(١٢)

---

(٨) صحيح البخارى ج ١ ص ٦ - ٧ باب كيف بدأ الوحى .
(٩) القلم : ٢ .
(١٠) الضحى : ٣ .
(١١) المزمل : ١ - ٥ .
(١٢) المدثر : ١ - ٢ .

وهكذا بدأت دعوة الرسول إلى الإسلام كدين عالمى للناس كافة إلى يوم الدين . وفى هذا المقام فإليكم مثلاً آخر على مكانة الرسول فى أهل مكة ، وأخلاقه الكريمة التى عرفت عنه بينهم حتى لقبوه بالصادق الأمين ، وهو لقب يجمع كل خصال الخير والشرف ، فيروى أنه حين أمر النبى ﷺ بالجهر بالدعوة بعد أن دامت سراً ثلاث سنين ، دعا بطون قريش من فوق جبل الصفا بظاهر مكة ، فلما اجتمعت إليه قال : « **يا بنى فلان ، يا بنى فلان ، يا بنى عبدالمطلب ، يا بنى عبد مناف ..، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدق ؟ قالوا نعم ! ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد** » .

ويعتبر هذا التاريخ سنة ٦١٢ م نقطة انطلاق الإسلام ، ويكون تاريخ الهجرة ٦٢٢ م منصفاً زمن الأمر بالتبليغ إلى قسمين متساويين تقريباً ، منها عشر سنوات فى مكة ومثلها بالمدينة حيث توفى الرسول ﷺ فى ١٢ أو ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ ، ٧ أو ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م عن ثلاث وستين سنة قمرية أو أكثر قليلاً من واحد وستين سنة شمسية إذا روعى الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية وهو أحد عشر يوماً تقريباً[(١٢)] .

هذه لمحة موجزة عن حياة الرسول خاتم الرسل والأنبياء ورسول الإسلام خاتم الأديان والرسالات محمد بن عبد الله ﷺ .

---

(١٢) انظر ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣ ، وسير ابن هشام - دار النفائس ، والمدخل إلى القرآن الكريم ٢١ - ٣٢ - محمد عبد الله دراز - دار القلم - الكويت ١٩٧١ م .

القــرآن الكريــم

من المعلوم أن الوثائق الدينية للإسلام ، تتمثل فى القرآن الكريم والسنة التى يعرفها الأصوليون بأنها « ما ثبت عن الرسول ﷺ ، وصدر عنه غير القرآن من الأقوال والأفعال والتقريرات والصفات الخلقية مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعى »[١٣] ، وأن الترتيب بين القرآن والسنة ترتيب قيمى ، بمعنى أنه من المسلم به عند المسلمين أن القرآن الكريم تعلو درجته فى القيمة والأهمية والثبوت والعصمة والقداسة ومن وجوه عديدة أخرى ، درجة السنة ، ويهمنا من تلك الوجوه وجهان :

الأول : أن القرآن كلمة الله المباشرة التى أوحى الله بها إلى الرسول ﷺ ، بواسطة جبريل عليه السلام لتبليغه إلى الناس ، أما السنة الشريفة ، فهى كلمة الرسول ﷺ التى استلهم فيها كلمة الله ووحيه وإلهامه .

الوجه الثانى : أن القرآن بإعتباره كلام الله ، فإن له قيمته الذاتية التى لا يعتمد فيها على مصدر آخر فى عصمته وكماله ، أما السنة ، فقيمتها وعصمتها نسبية تعتمد فيها على القرآن الذى له القوامة عليها فى القبول والرد والعمل والترك وتمييز الملة من النحلة فيها ، فالسنة مثلها مثل غيرها من النصوص الدينية الأخرى تحت قوامة القرآن .

من أجل هذا واتساقاً مع منهج البحث وغايته ، فسأقتصر الكلام على القرآن الكريم بإعتباره الكتاب المقدس للإسلام ، وليس فى إفراد القرآن بالكلام ، أدنى تقليل من أهمية السنة التى تمثل مع القرآن المصادر الأساسية فى التشريع والأخلاق ، وإنما لأن هذا ما اقتضته طبيعة البحث والمنهج الذى التزمنا به فى معالجته .

---

(١٣) دراسات فى السنة النبوية الشريفة ص ٢٦ – صديق عبدالعظيم – هجر للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٨٨ م .

والقرآن الكريم كتاب الإسلام الذى نزل به الوحى الأمين على قلب سيد المرسلين الصادق الأمين محمد ﷺ ، المتعبد بتلاوته المتحدى به لفظاً ومعنى ، ولم يكن القرآن فى حياة الرسول بالشكل الذى نراه عليه اليوم ، فقد نزل القرآن منجماً وكان الرسول يتلو ما يتلقاه ويعلمه الناس وفى نفس الوقت يمليه على كتبة الوحى الذين كانوا يكتبونه على أى شئ فى متناول أيديهم من ورق أو خشب أو جلد أو صفائح الحجارة والعظام ، وبلغ عددهم تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ، وأبى ابن كعب وزيد بن ثابت ، وهكذا توافر على حفظ القرآن منذ نزوله عاملا

الحفاظ ، وكانوا الكثرة إن لم يكن كل الصحابة .
وكتاب الوحى ، وكانوا من أفاضل الصحابة .

كما أنه كانت تتم مراجعة سنوية فى شهر رمضان بين الرسول وجبريل عليه السلام لما نزل من آيات القرآن وفى العام الأخير راجع جبريل القرآن على النبى ﷺ مرتين ، مما جعل الرسول يتنبأ بقرب أجله فقد روى البخارى عن فاطمة قالت : [**أسرّ إلى النبى ﷺ ، أن جبريل يعارضنى بالقرآن كل سنة وإنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى**][١٤] .

وبعد وفاة الرسول ﷺ أشار عمر على أبى بكر بإخراج القرآن فى شكل جديد يسهل استعماله والرجوع إليه . حيث إن وجوده على هذه الصورة المتفرقة فى صحائف متنوعة الشكل والمادة يخشى معه فقدان إحداها ، كما أن الحفظة يخشى بمضى الزمن . موتهم أو تفرقهم فى مقاصد الجهاد وشئون الحياة ، فأقر أبو بكر رأى عمر وعهد بهذه المهمة إلى لجنة من كبار كتاب الوحى والحفظة ووضع على رأسها كاتب الوحى الصحابى الجليل زيد بن ثابت ، وعلى الفور قامت اللجنة بمهمتها الجليلة على أسس علمية دقيقة فى جمع صحائف القرآن تقضى بألا يؤخذ

---

(١٤) جـ ١ ص ٢٢٧ .

بأى مخطوط لا يشهد له شخصان من حفظة الوحى بأنه من إملاء الرسول شخصياً ، وأنه جزء من التنزيل فى صورته النهائية التى أقرها الرسول ﷺ .

جمع القرآن بهذا الضبط والحرص الشديد وتوافر على جمعه جميع الصحابة ولقى رضاهم وإقرارهم جميعاً . ثم سلم المصحف بعد جمعه وإقراره إلى أبى بكر فحفظه عنده طول خلافته ثم قبل موته عهد به إلى عمر الذى سلمه قبل موته إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ، لأن الخليفة لم يكن قد تم تعيينه بعد .

هذه هى الرحلة الأولى لجمع القرآن ، ولكن فى عهد عثمان رضى الله عنه سمع من بقاع مختلفة فى الدولة الإسلامية بعض الاختلافات فى القراءات ، بالإضافة إلى اختلاف اللهجات فى القراءة ، فشكل عثمان رضى الله عنه لجنة من أربعة من كتاب الوحى وعلى رأسهم زيد بن ثابت رئيس اللجنة الأولى وهو من الأنصار ومعه عبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن هشام من المهاجرين ، وكلفهم بنسخ عدد من المصحف المحفوظ عند حفصة بعدد الأمصار الرئيسية فى الدولة الإسلامية على أن تكون الكتابة بلسان قريش الذى نزل القرآن به ، وبعد أن أتمت اللجنة مهمتها جلدت هذه النسخ وتم إرسالها إلى تلك الأمصار باعتبارها النموذج الوحيد للقرآن الذى أقره الرسول والمسلمون جميعاً منذ عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وهذا هو المصحف المتداول فى العالم الإسلامى منذ عهد عثمان رضى الله عنه وحتى الآن .

وإليكم ما رواه البخارى فى باب جمع القرآن ، فقد روى عن زيد بن ثابت أنه قال : [**أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه ، إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القراء ، وأنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟! قال عمر : هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر ، قال زيد ، قال أبو بكر : أنك رجل شاب عاقل لا تتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فأجمعه فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من**

العسب واللخاف وصدور الرجال .. فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه ..] ثم يروى البخارى عن مصحف عثمان : [إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان أمير المؤمنين . أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف بما نسخوا ، أمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق][١٥] .

وهكذا توافر للقرآن من عوامل الحفظ سنداً ومتناً ما لم يتوافر للكتب السماوية السابقة مثل التوراة والإنجيل .

القرآن الكريم من إملاء الوحى :

ها قد ثبت أن القرآن الذى بين أيدينا الآن لم ينله تحريف ولا تبديل منذ أملاه الرسول ﷺ وإلى يوم القيامة إن شاء الله ، وهذا أمر لم يمار فيه أحد فقد توفر للقرآن من صحة السند واتصاله ما لم يتوفر لكتاب غيره على وجه الإطلاق ، حتى الذين جندوا أنفسهم لإثبات عكس ذلك وقاموا بتوثيق القرآن على أعلى مستوى من النقد العلمى ، أعجزهم أن يجدوا مدخلاً إلى الطعن فى صحة سنده واتصاله بالرسول ﷺ ، ولم يجدوا إلا الإقرار بأن القرآن الذى بين أيدينا الآن هو هو القرآن الذى أملاه محمد ﷺ دون زيادة أو نقصان ؛ منهم على سبيل المثال لا الحصر : « نولدكة » الذى ألف مؤلفاً ضخماً من عدة أجزاء سماه « تاريخ القرآن » خرج منه بتلك الحقيقة التى أملاها عليه العلم وحده : « إن النص القرآنى منذ وجد وحتى الآن على أحسن صورة من الكمال والمطابقة » ، و « لويلو » الذى قام بدراسة علمية مقارنة بين الكتب المقدسة يعلن بعدها فى

---

(١٥) البخارى جـ ٣ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ . وانظر سيد الأنام محمد – ابن هشام ص : ٢١ .

وضوح وحسم : « إن القرآن هو الكتاب الربانى الوحيد الذى ليس فيه أى تغيير يذكر » .

وأخيراً يقول المستشرق « و. مور » : « أن المصحف الذى جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا دون أى تحريف ، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير على الإطلاق فى النسخ التى لا حصر لها والمتداولة فى البلاد الإسلامية الواسعة ، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة وهذا الاستعمال الجماعى لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا والذى يرجع إلى الخليفة المنكوب عثمان الذى مات مقتولاً »[١٦] .

ولكن ما يمارى فيه ملحد معاند أو مكابر متعصب هو أن يكون القرآن من إملاء الوحى على محمد ابن عبدالله بن عبدالمطلب صلوات الله وسلامه عليه ، ورغم أن هذا الأمر قد قامت عليه من الأدلة والشواهد مالا يمارى فيها إلا من فى قلبه مرض أو تعصب وتلك آفة تعمى البصر والبصائر حتى لا ترى الشمس وهى فى كبد السماء لا يحجبها غيم أو ضباب ، فإلى هؤلاء نسوق بعض الأدلة لعل الله يهدى الممترين .

وجدل هؤلاء يدور بين احتمالين : إما أن يكون القرآن ثمرة لقريحة محمد الذاتية ، أو هو من إملاء معلم من البشر ، وهاكم الأدلة على كذب الإدعاءين معاً :

أولاً : شهادة الرسول نفسه : فهو لم يدع شرف أن يكون القرآن ثمرة لقريحته ومن إنشائه الخاص ، مع أن هذا الادعاء كان سيخلد ذكره بين العالمين كما أن سيرة الرسول وأخلاقه قبل البعثة وبعدها خير شاهد على صدقه وأمانته فقد عرف بين قومه قبيل البعثة بالاستقامة والأمانة ومكارم الأخلاق حتى لقبه قومه بالأمين ، وهذه صفة تجمع كل خصال الخير والمروءة . ثم بعد بعثته ساومه قومه على أن يعدل عما أتى به وله المال حتى يكون أكثرهم مالا والجاه حتى يكون ملكاً عليهم وكل ما يريد من متع الحياة وزينتها فيكون رده : [**والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته**][١٧] . فلو كان يريد بالقرآن زعامة أو مجداً أو مالاً فقد وضع قومه بين يديه كل هذا ولكنه على العكس تحمل فى سبيل تبليغ ما أملاه عليه

(١٦) البخارى جـ ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
(١٧) مدخل إلى القرآن الكريم ٣٩ - ٤٠ د . محمد عبد الله دراز .

الوحى صنوف من الإيذاء والهوان وتعرضت عشيرته ومن تبعه إلى المقاطعة حتى أكلوا أوراق الشجر الجافة ، وأخرج ومن آمن به من أموالهم وأوطانهم ، وقاتل حتى كاد أن يقتل ، ومع هذا لم تبد منه بادرة ضعف أو تراجع أو مهادنة أو مساومة فى سبيل إبلاغ ما كلف به ،

ثم يكفى شهادة رجل كان يوم أن أدلى بشهادته من أعتى خصوم النبى وأكثرهم كيداً ودهاء ، ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب عظيم قريش الذى أدلى بشهادته بناء على استجواب منهجى دقيق أجراه معه هرقل عظيم الروم ، فقد حدث أنه بعد انتصار هرقل على الفرس سنة ٦٢٨ م أن جاءه وهو فى سوريا كتاب الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام مما أثار دهشته فأمر بإحضار من وجد بسوريا من مواطنى هذا الرسول ليسأله عن أمره ، يقول أبو سفيان كما روى البخارى :

[أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه . فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال : أبو سفيان ، فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه — يقول أبو سفيان — فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .
قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟
قلت : لا .
قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟
قلت : لا .
قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟
فقلت : بل ضعفاؤهم .
قال : أيزيدون أم ينقصون ؟
قلت : بل يزيدون .
قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .
قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قلت : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها - ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة -
قال : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم .
قال : فكيف كان قتالكم إياه !
قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه .
قال : ماذا يأمركم ؟
قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه ، أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه . وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أخلص إله لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى

هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الإريسين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمية سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

قال أبو سفيان ، فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابى حين أخرجنا لقد أمِرَ أمر ابن أبى كبشة إنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام][18] .

هذا هو محمد الذى دعا إلى كل فضيلة ونهى عن كل رذيلة ، كيف يمكن أن يؤسس دعوته على أس الرذائل وهو الكذب ، ثم إذا جاز عليه ذلك فلم لم يدع القرآن لنفسه ، ولا شك أن هذا الادعاء كان سيخلد ذكره بين العالمين .

ثم بماذا كان يدعو محمد ؟ دعونا نتبين هذا من أحد الذين آمنوا به وانخلع من ماله وأهله ووطنه وهاجر فراراً بدينه الذى أقر به محمد .

فقد حدث أنه حين اشتد كيد قريش وإيذائهم لمن آمن بمحمد واعتنق دعوته أن أذن الله للمستضعفين منهم بالهجرة إلى الحبشة ، ولما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا فى مهجرهم وأمنوا على دينهم ، عقدوا العزم على إرجاعهم قبل أن يستفحل أمرهم وتنتشر دعوتهم فى أفريقيا مما يهدد تجارتهم وصلاتهم معها ، فبعثوا عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن أبى أمية محملين بالهدايا إلى النجاشى ملك الحبشة وحاشيته ليردوا من هاجر إليهم ، وحين قابلا الملك ، قالا له : أيها الملك أنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم عليهم . فقال النجاشى : والله لا أسلم قوماً جاورونى واختارونى على من سواى حتى أسمع منهم ، فإن كان قولهما حقاً أسلمتهم وإن كان غير ذلك منعتهم ، ثم أمر بإحضارهم جميعاً فلما حضروا قال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من الملل ؟!

---

(١٨) سيرة سيد الأنام محمد – لابن هشام ص ٢١ .

فقال جعفر بن أبي طالب ، وكان المتكلم عنهم ، ملخصاً فى إيجاز بليغ ما يدعو إليه محمد ومقارناً فى دقة بين ما كان يدين به العرب وما أتى به الإسلام قال : **أيها الملك ، كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله ، وأن لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمر بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل ما اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام – وعدد عليه أمور الإسلام – فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحل لنا ، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .**

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شئ ؟ قال نعم ! فقرأ عليه أول سورة مريم فبكى النجاشى وأساقفته : وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا والله لا أسلمهم إليكما أبداً(١٩) .

وإذا نظرنا فى رسائل محمد إلى ملوك العالم ، ماذا نجد ؟ لا نجد إلا دعوة إلى الإسلام والسلام ، دعوة إلى الحب والإخاء فى الله لا إلى جاه شخص أو سلطان .

إلى هرقل ملك الروم :

[بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل السلام على من اتبع الهدى أما بعد :

أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وإن تتول فإن إثم الإريسيين عليك] .

إلى المقوقس عظيم القبط بمصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط .

---

(١٩) باب كيف كان الوحي جـ ١ ص ٨ – ٩ .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون] .

إلى النجاشى ملك الحبشة :

[بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . سلام أنت ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق ادم بيده ونفخه وأنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى] .

إلى كسرى ملك الفرس :

[بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً . أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك اسم المجوس][٢٠] .

ثانيا : أمية الرسول :

وهذا أمر لم يمار فيه أحد ، فقد كان النبى أمياً فى بيئة أمية ويكفى أنها وسمت بالجاهلية حتى أصبحت علماً عليها ، فلم يكن بها مؤسسات علمية يمكن أن يتلقى الرسول منها معارف تؤهله أن يأتى بقليل أو كثير مما أتى به القرآن ، بل على العكس فإن ما أتى به القرآن كان مبايناً وعلى النقيض مما ساد فى بيئته من أخلاق ومعتقدات ، كما أن الرسول لا يمكن أن يكون قد تلقى القرآن عن النصارى الوافدين على مكة من الأحباش والروم فهؤلاء كانوا فى مكة عبيداً أو

(٢٠) ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٢ .

حرفيين ولم يكن لهم وزن ثقافى أو اجتماعى ، كما أن حاجز اللغة يمنع أن يأخذ الرسول عنهم شيئاً على فرض وجود شئ لديهم ، والواقع أن هذا الزعم قد أثاره المعاندون من قريش حين قالوا : (إنما يعلمه بشر)[٢١] ، وحين طولبوا بتعيين هذا المعلم ، لم يجرؤوا أن يسندوه لواحد منهم . فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا ولا آباؤهم . فلجأوا إلى الهزل حين زعموا أن الذى يملى على محمد القرآن غلام رومى يعمل حداداً بمكة ، فكان رد القرآن المفحم :

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[٢٢]

فتراجعوا عن هذا الادعاء لسخفه وتهافته ، واتجهوا إلى القول بأنه من وحى قوة خارج قوة البشر وطاقاتهم . كالجن والسحر والشياطين ، فكان هذا القول اعتراف واقرار منهم بأعجوبة القرآن وخروجه عن طاقة البشر وقرائحهم .

كما أن الرسول لا يمكن أن يكون قد تلقى القرآن عن معلم خارج الجزيرة العربية ، لأن رحلاته كما رصدها التاريخ كانت محدودة . وفى شئون التجارة ، كما لم يعرف عن محمد قبل بعثته ولعله بالعلم النظرى أو الجدل الدينى فضلاً عن أن المناخ الثقافى والدينى العام داخل الجزيرة العربية وخارجها كان مشبعاً بالوثنية والرذيلة وكل ما هو على طرف نقيض مع ما بشر به محمد وأتى به القرآن ، كما لا يمكن الزعم بأن القرآن كان ثمرة احتكاك محمد بالنصارى أو اليهود أو اطلاعه على كتبهم الدينية مثل التوراة والإنجيل لأن هذا الزعم يقوم على تهافته أكثر من دليل :

١ – الكتب الدينية لليهود والنصارى كانت محرفة تماماً فى عهد الرسول وما وجد منها كان مكتوباً إما بالعبرية أو اليونانية أو السريانية ، ولم يعرف أن أحداً اعتنى بترجمتها إلى اللغة العربية حيث كان العرب أمة أمية وثنية لا غرض لها فى الاطلاع على الثقافات أو الديانات الأخرى ، فضلاً عن التباين الواضح بين ما احتواه القرآن وما احتوته الكتب الأخرى لليهود والنصارى وهى جميعاً بين أيدينا الآن .

---

(٢١) تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ، ١٩٧ – ١٩٩ الدكتور حسن إبراهيم حسن القاهرة ١٩٣٥ .
(٢٢) النحل : ١٠٣ .

٢ – ولا يمكن أن يكون القرآن كما زعم البعض ثمرة احتكاك الرسول باليهود فى المدينة ، لأنه من جهة فإن كثيراً من القرآن نزل على النبى فى مكة قبل الهجرة ولم يثبت أن الرسول كان على علاقة باليهود فى تلك الفترة . ومن جهة أخرى فإن علاقة الرسول باليهود فى المدينة كانت علاقة الأستاذ بالتلميذ والمصلح بالمنحرف والحق بالباطل وقد أدانهم وسفه أخلاقهم ومعتقداتهم واتهمهم بالكذب والتحريف والتزوير فى كتبهم المقدسة ، ومن يتصفح القرآن الكريم يجد أنه يكاد يخصص سور بكاملها للحديث عن أخلاق اليهود وسيرتهم مع أنبيائهم منذ موسى وحتى عيسى عليهما السلام ومن الصعب أن نجد رذيلة لم يصف القرآن بها اليهود وإليكم بعض الآيات التى تتحدث فقط عن سيرة اليهود مع المسلمين فى المدينة وتحذر المسلمين من أخلاق اليهود وخبث طويتهم حين يخاطب المسلمين قائلاً :

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) ﴾(٢٣)

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾(٢٤)

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾(٢٥)

(٢٣) النحل : ١٠٣ . (٢٤) البقرة : ٧٥ – ٧٦ . (٢٥) آل عمران : ٧٥ .

أيمكن بعد هذا أن يكون اليهود نموذجاً يحتذى به محمد ، أو أن يكونوا مصدراً لتعاليمه التى أتى بها القرآن الكريم ، كما أن أحداً منهم لم يدع أن له فضلاً على محمد فيما تلاه من قرآن ، وعلى العكس كانوا من أشد المعاندين وأكثرهم عداوة وحقداً على الرسول ومن آمن به ، حتى قال فيهم القرآن الكريم :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [26]

كما أن منهم من آمن بمحمد وصدق به رسولاً وبالقرآن وحياً منزلاً ، فقد أسلم فريق من علماء بنى إسرائيل وشهدوا بصدق محمد بناء على بعض العلامات الموجودة فى كتبهم ، ومن أشهرهم عبدالله بن سلام الذى يحدثنا البخارى عن ظروف إسلامه فيقول :

[**فلما جاء نبى الله ﷺ – (أى إلى المدينة) جاء عبدالله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وإبن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا إنى قد أسلمت ، فإنهم إن علموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى ، فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : يا معشر اليهود ويلكم إتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً وأنى جئتكم بحق فأسلموا . قالوا ما نعلمه ؟.. قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى لله ما كان ليسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا حاشى لله ما كان ليسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى لله ما كان ليسلم . قال : يا ابن سلام أخرج عليهم . فخرج فقال يا معشر اليهود إتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق ، فقالوا كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ**][27] .

٣ – كما أنه لا يمكن الزعم بأن القرآن ثمرة احتكاك محمد بالنصارى حيث كانوا فى قاع الرذيلة والضلال وفيهم يقول القرآن :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا

(٢٦) النساء : ١٦١ .

(٢٧) جـ ٢ ص ٣٣٥ باب هجرة النبى ﷺ .

﴿ بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢٨)

وليس هذا قول القرآن فقط ، وإنما هو شهادة علمائهم . ويكفى منها شهادة رجلين من خيرة رجالهم ، يقول العالم المسيحى : « ج سال » : إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية . فسنرى أن العالم المسيحى قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته بسبب أطماع رجال الدين والإنشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل ، والمشاجرات التى لا تنتهى والتى كان الانقسام يتزايد بشأنها ، وكان المسيحيون فى تحفزهم لإرضاء شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة ، قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود » (٢٩).

أما الآخر فهو « تايلور » الذى يقول فى كتابه « المسيحية القديمة » ما يلى : « إن ما قابله محمد وأتباعه فى كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة . ومذاهب كنيسة ، وطقوساً دينية منحلة وصبيانية ، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة بأنهم رسل من قبل الله مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد » (٣٠) .

وهذه الشهادة ممن لا يدينون بالإسلام تؤكد صدق على رضى الله عنه فى قوله : [كان أهل الأرض يوم قام الرسول يهدى من الضلالة ، مللاً متفرقة وأهواء منتشرة وطوائف مشتتة ، بين مشبه لله بخلقه أو ملحد فى اسمه أو مشير إلى غيره ، ضلالاً فى حيرة ، وخابطين فى فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستذلتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى فى زلزال من الأمر وبلاء من الجهل] (٣١) .

وواضح من كل هذا أن الجو العام داخل الجزيرة العربية وخارجها والذى ظهر فيه محمد النبى الأمى معلماً وهادياً ومرشداً إلى الحق والخير بما أوحاه الله إليه ، لا يمكن لذى عقل الإدعاء بأن النور الذى أتى به محمد يكون ثمرة لهذا الظلام الذى ساد العالم عقدياً وأخلاقياً .

---

(٢٨) المائدة : ١٤ .　　(٢٩) مدخل إلى القرآن الكريم : ١٣٦ .
(٣٠) المرجع السابق : ١٣٧ .
(٣١) الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٤ .
محمد كرد على – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٦٨ .

رابعاً : إعجاز القرآن :

وهو خير شاهد على أن القرآن إلهى المصدر ، فالقرآن يستعلى بذاته عن حدود الطاقة البشرية والجنية والملائكية وكل مخلوق .

فمن ذا الذى يعرف من البشر الكون ماهيته وماضيته وحاضره ومستقبله وقوانينه وعلاقاته بيقين . بمثل ما تحدث به القرآن ؟!

أنى لبشر أن يعرف الله وصفاته وما يجب وما يستحيل وما يجوز فى حقه ، والعالم والإنسان وعلاقته بالله وبالكون وما يجب عليه أن يفعل وألا يفعل إن أراد السعادة فى الدنيا والآخرة ، كما تحدث به القرآن ؟!

أنى لبشر أن يخبر بما فى باطن الماضى وما فى رحم المستقبل بصدق ويقين تام وكأنه يخبر عن مرآة مجلوة تعكس الزمان والمكان وما فيهما كلحظة وآن واحد بمثل ما تحدث به القرآن ؟!

أنى لبشر . يتحدث عن النحل والعنكبوت والذباب بنفس العلم والانكشاف الذى يتحدث به عن الشمس والقمر والأرض والنجوم والكواكب وما هو أصغر من هذا وما هو أكبر من هذا ، وكأن الكون كله وما فيه ومن فيه أمام علمه كلمة واحدة ، بمثل ما تحدث به القرآن ؟!

وأنى لبشر أن يعرف الحق من الباطل والخطأ من الصواب والحسن من القبيح ويأتى بتشريع فيه هداية للبشر جميعاً ، ليس ليوم أو مكان أو جيل أو عصر ، وإنما لكل يوم وكل مكان وكل إنسان ، مهيمن على الدهر كله وعلى الناس كلهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، ودرجاتهم وأقطارهم ، ثم يتحدى بهذا التشريع الزمن والمكان والإنسان ، فيقول :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٣٢)

---

(٣٢) طه : ١٢٣ - ١٢٤ .

لا أحد من البشر ولا أحد من الجن ، ولا البشر جميعاً ، ولا الجن جميعاً ، ولا هم جميعاً متعاونون متآزرون قادرون على شئ من هذا . وهذا هو الإعجاز والتحدى الذى طرحه القرآن عليهم جميعاً ولا زال الإعجاز والتحدى قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣٣)

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣٤)

فالذين يشككون فى نسبة القرآن إلى الله عليهم أن يقبلوا التحدى ، لعل عجزهم يكون سبباً فى هدايتهم إلى الإسلام .

فالذين يشككون فى نسبة القرآن إلى الله عليهم أن يقبلوا التحدى ، لعل عجزهم يكون سبباً فى هدايتهم إلى الإسلام ، بل لعل هذا التحدى ، هو سبيل من سبل القرآن ومقصد من مقاصده فى الدعوة إلى الإسلامية ، لأنه مما يدعو إلى التأمل ، أنه ما من عالم مخلص مجرد عن الهوى فى طلب الحق ، قبل هذه الدعوة فى التحدى ونظر فى القرآن بمنهج موضوعى ، إلا وانتهى به البحث إلى التسليم بعصمة القرآن وقدسيته – عصمته العلمية فى موضوع النظر وخلوه من الخطأ والتناقض ، وقدسيته فى كماله واستعلائه عن قدرات البشر – ولعل من أحدث التجارب المعاصرة فى هذا الشأن – تلك التجربة العلمية التى قام بها ذلك العالم الفرنسى المشهور بوريس بوكاى ، والذى أنفق معظم عمره وجهده فى نوع من هذا النظر العلمى الموضوعى فى القرآن الكريم ثم انتهى بعد دراسة نقدية دقيقة للقرآن فى مجال بحثه استغرقت ثلاثين سنة(٣٥) إلى تقرير ما يمكن أن يعتبر بحق

(٣٣) الاسراء : ٨٨ .
(٣٤) البقرة : ٢٣ .

شهادة علمية لا تقبل النقض ، وهى أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف محمد ﷺ ولا من غيره من البشر وإليكم نص شهادته :

يقول : « القرآن الذى لا يحوى أية يقينية علمية غير مقبولة .. تجعل إفتراض من يرون محمداً كاتباً للقرآن مرفوضاً ، إذ كيف يتسير لرجل حُرِم العلم فى نشأته أن يصبح الكاتب الأول فى الأدب العربى كله يخبر عن حقائق فى النظام العلمى تتجاوز وسع أى كائن إنسانى فى هذا الزمن ودون أن يكون منه أى خطأ مع ذلك ؟!

إن من المستحيل تصور رجل عاش فى القرن السابع الميلادى واستطاع أن يورد فى القرآن أفكاراً فى موضوعات متنوعة جداً ليست أفكار عصره ستلتقى مع ما سيكشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه . أما بالنسبة إلى فليس للقرآن أى تفسير بشرى »[٣٥] .

وإن كان لى من تعقيب على هذه الشهادة الموضوعية ، فإنه مع تلك الشهادة القيمة وكثير مثلها من الشهادات ، فإن القرآن نفسه سيظل دائماً هو الشاهد الأعظم والأكبر على كماله وإعجازه ، وأن من يمعن النظر سيجد أنه ما من أحد يمارى فى تلك الحقيقة إلا من منطلق أخلاقى وليس من منطلق علمى بأى حال من الأحوال ، فهو إما جاهل وتلك رذيلة ، وإما متعصب عن هوى وتلك أقبح الرذائل ، وسيجد أنه ما من أحد أصاب القرآن أو نال منه بالإنكار أو التشكيك وأن كل من أثار شكوكاً حول القرآن إنما زرع الشك فى نفسه هو وقامر على وجوده وسعادته ، فما من مصدر خارج القرآن يمكن أن يعتمد عليه الإنسان فى تفسيره لنشأته ووظيفته وعلاقاته وغاياته ، أو أن يمنحه الثقة واليقين فى ماضيه وحاضره ومستقبله ومصيره ، أو أن يحرره من الجوع والخوف ويمنحه الأمن والسلام ومن يمارى فى شئ من ذلك فما عليه إلا أن يسأل التاريخ والجغرافيا أو الزمان والمكان ، فإنه إن أحسن السؤال فسيجد أنه لا شئ يعتد به ويعتمد عليه ويوثق به إلا القرآن .

---

(٣٥) انظر ص ١٠٦ - ١١٨ من كتابه « التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - دار الكندى - بيروت ١٩٧٨ م .

الفرق الإسلامية

كان المسلمون فى عهد الرسول ﷺ والخليفتين أبى بكر وعمر على قلب رجل واحد ، يؤمنون بالله فى إخلاص شديد ، يذعنون لما أتى به الرسول فى تسليم كامل ، ليس لهم من هدف إلا إحقاق الحق والجهاد فى سبيل نصرة الإسلام وإبلاغ دعوته إلى الناس كافة ، لم يعرفوا الجدل والمماراة فى أصل من أصول الدين ، فالإيمان يملؤ قلوبهم بكل ما أتى به الوحى دون جدل أو مناقشة ، يتجهون فى مضاء وثبات وعزم لا يعرف الوهن أو الضعف والتخاذل إلى إعلاء كلمة الله وتحقيق سيادة الإسلام على العالم كله حتى يتحقق العدل والسلام على الأرض وفى قلب الإنسان ، إلى أن قتل الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه فكان قتله صدمة زحزحت المسلمين عن طريقهم ونكست بها وحدتهم وأخوتهم ، وصدقت فيهم نبوءة عثمان رضى الله عنه حين ضيق عليه محاصروه الخناق : « لئن قتلونى لم يصلوا بعد جميعاً أبداً ، ولم يقتلوا عدواً جميعاً أبداً »[٣٦] .

بعدها بدأ الخلاف يدب بين صفوف المسلمين ويتسرب الضعف والوهن إلى قلوبهم ، فبعد أن كانوا فرقة واحدة أصبحوا فرقاً وبعد أن كانت كلمتهم واحدة أصبحت كلاماً ، وبعد أن كانوا يحفظون النصوص الدينية ويؤمنون بها فى إخلاص وتسليم كامل ثم يسخرون كل ملكاتهم وقواهم فى تطبيقها ، أصبحوا يعتنقون أفكاراً ومبادئ غريبة ثم يتهجمون على النص المقدس يستنطقوه كرهاً ما يؤيد مذهبهم وما تزين لهم نفوسهم وأهواؤهم ، فتداعت الفتن بتداعى الأحداث التى أعقبت استشهاد عثمان رضى الله عنه وبحق ما قال الشهرستانى : (وكان هذا أعظم خلاف ، وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف على عقيدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان)[٣٧] .

وجرياً على عادة المؤرخين فى تتبع مظاهر الخلاف بين المسلمين عقب وفاة الرسول ونموها وتداعيها حتى انتهت بالفرق المعروفة بين المسلمين ، علينا أن

(٣٦) المرجع السابق/١١٨ .
(٣٧) الفتنة الكبرى ٢٠٧ – طه حسين .

نعرض بإيجاز لأهم تلك الاختلافات التى بدأت حول أمور عملية أو اجتهاد فى الرأى لا يمس أصلا من أصول الدين إلا أنها استغلت بعد ذلك فى أبحاث كلامية عند الفرق المختلفة مما يعتبر عندنا الجانب الذى يمثل النحلة أو الدعوى أو كلام البشر فى التراث الإسلامى .

أولاً : وفاة الرسول :

لم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول ﷺ بالحمى ، فلما رأى المسلمون اشتداد المرض على الرسول أحاطوا بالمسجد فى وجوم وحزن شديد فخرج إليهم عليه السلام متحاملاً على نفسه وخطب آخر خطبة فيهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (٣٨)

وإن الأمور تجرى بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لايعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ، ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفكف لسانه إلا فيما ينبغى »(٣٩) .

---

(٣٨) الملل والنحل ١/٢٢ .

(٣٩) انظر كتاب سيرة الرسول ﷺ - ابن هشام : ٤/٢٧٥ - ٢٧٦ القاهرة ١٣٣٦ هـ .

ولم يلبث بعدها بأيام حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة على أكمل وجه وأحسنه ، وزلزل المسلمون لوفاته ﷺ زلزالاً أذهلهم عن سنة الله فى أنبيائه أنهم يموتون كما يموت البشر ، وأقبل الصديق مهرولاً ، وعمر يصرخ فى الناس على باب مسجد الرسول ﷺ متوعداً بسيفه كل من ينعى إليه رسول الله ، فلم يلتفت الصديق إلى شئ حتى دخل على صديقه وحبيبه وكشف عن وجهه الشريف ثم قال والحزن يعتصر فؤاده : بأبى أنت وأمى ، طبت حياً وميتاً وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشئون ، فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وإدناف يتخالفان ولا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا السلام ، أذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا وأحفظه فينا . ثم خرج إلى الناس وقد أذهلتهم الفاجعة عن نفوسهم ، فخطب فيهم خطبة انتشلتهم وهم حماة الإسلام من أسر اليأس والإحباط ، وأصبح أبو بكر بهذا الموقف صديق المسلمين كما كان صديق الرسول ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين .. أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ألم يقل الله لنبيه [أنك ميت وإنهم ميتون] وإن الله قد تقدم إليكم فى أمركم فلا تدعوه جزعاً ، وإن الله اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه فمن أخذ بهما فقد عرف ومن فرق بينهما فقد أنكر يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذى تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم » (*) .

وكان موت النبى محنة قاسية وفتنة وقى الله المسلمين شرها بفضل عزيمة الصديق العظيم أبو بكر رضى الله عنه .

(*) انظر كتاب سيرة الرسول ﷺ – ابن هشام : ٢٧٥/٤ – ٢٧٦ القاهرة ١٣٣٦ هـ .

ثانيا : خلافة أبى بكر :

وبوفاة النبى ﷺ واجه المسلمون أمراً خطيراً لم يخطر على بالهم وهو أمر الحكم ، ويبدو أنهم لم يهيئوا أنفسهم له لسببين :

الأول : أنه لم يرد على خاطر واحد منهم لحظة النهاية بالنسبة للرسول ، فقد كان ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، ومن الطبيعى أن لا يفكر المحب فى نهاية من يحب .

الثانى أن الرسول ﷺ لم يطرح مسألة خلافته باعتبار أن هذه مسألة سياسية تتصل بشئون الدنيا ، والمبدأ العام الذى قرر الرسول ﷺ أن المسلمين أعرف بشئون دنياهم فيما لم يرد فيه حكم شرعى ، وليس فى القرآن أو السنة تحديد شكل الحكم إلا المبدأ العام وهو الشورى والحكم بما أنزل الله ،

وهكذا طرحت المشكلة نفسها فجأة دون استعداد لملاقاتها ، رغم أنه أمر يتعلق بكيفية معالجته استمرار مد الدعوة أو انحسارها ، ولكن كانت هذه المشكلة الفرصة التى أظهرت عظمة الرجال الذين صاغهم محمد ورباهم على مائدة القرآن الكريم .

توفى رسول الله ﷺ إذن ولم يعين من يخلفه بل ولم يبين كيف يكون اختياره ومن هنا أسرع الأنصار قبل دفنه عليه السلام إلى عقد اجتماع فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون فى حل سريع للمشكلة ، وأدركهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح من المهاجرين ليكون الأمر شورى بين المهاجرين والأنصار ، وما لبث المؤتمرون أن انقسموا إلى رأيين .

رأى يرى الخليفة من الأنصار بدعوى أنهم أنصار الدعوة وحماتها الذين آثروا الرسول ﷺ والمهاجرين على أنفسهم وأموالهم . أعز الله بهم الإسلام حتى كانت مدينتهم عاصمة لدعوة إسلامية فرضت سيادتها بالحق والعدل على العالم ، وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وبهم قرير العين ، فهم أولى بخلافته وأقدر من غيرهم على رفع راية الدعوة والتمكين لها فى الأرض .

أما الرأى الآخر ، فيرى أن الخليفة يجب أن يكون من المهاجرين لأسباب عديدة أهمها :

١ – **سبب سياسى** : وهو أنهم من قريش ، والعرب لا تدين إلا لهم ، وقد كان هذا فى الجاهلية فأحرى به أن يكون فى الإسلام فكون الخليفة قرشى ومن السابقين فى الإسلام يحفظ على العرب وحدتها السياسية ويؤكد وحدة الأمة الإسلامية ، وإذا كان الأنصار قد احتضنوا الدعوة وناصروها فإن المهاجرين كانوا الرواد الأول الذين تحملوا كل صعب فى سبيل نصرتها وبقائها .

٢ – **سبب نفسى** : فالعرب ستكون أميل إلى عدم خروج الأمر من أهله ، واختيار الخليفة من المهاجرين وهم قوم الرسول وعشيرته ، سيعطى معنى الاستقرار والاستمرار ، أما إذا اختير الخليفة من الأنصار ربما تحدث القبائل نفسها بأنه مادام الأمر ليس فى قريش ، فما بال الأنصار وهم من الأوس والخزرج أولى بالأمر من القبائل الأخرى ؟ ويؤول الأمر إلى العصبية القبلية ، أما فى قريش ، فحقها معلوم ومقرر عند العرب جميعاً من جهتين : الأولى أنها سيدة العرب فى الجاهلية ولا تقر القبائل بعزة ومنعة غير عزتهم ومنعتهم . الثانية ، أنهم قوم الرسول ﷺ وعشيرته وقد زادهم هذا عزاً فوق عز ومنعة فوق منعة ، فيكون اختيار الخليفة منهم وكأنه استمرار لوضع مقرر وليس إنشاء لوضع جديد .

ودار الجدل والحوار كل يدلى بحججه ويقدم الأدلة التى ترجح كفته وتؤيد ما يعتقد أنه تأييد للحق وتدعيم للإسلام . وتوفيقاً بين الرأيين وجمع للكلمة إقترح بعض الأنصار أن يكون الحكم شركة فمنهم أمير ومن المهاجرين أمير ، ولكن المهاجرين رفضوا ، ولهم حجة فى هذا ، لأن الأخذ بهذا الاقتراح أشد خطراً ليس على وحدة المسلمين وقوة الدولة فحسب ، بل وعلى الأنصار أنفسهم ، فسيعود بالأنصار إلى عهد كان للإسلام ولرسوله فضل رفع أوزاره وسيئاته عن كواهلهم ، فأمير الأنصار من يكون ؟ هل يكون من الخزرج فينفس عليه الأوس ؟ أم من الأوس فينفس عليه الخزرج ؟ وهكذا فالأخذ بهذا الاقتراح كان ، من جهة نظرى على الأقل ، سيؤدى إلى إحياء خصومة الجاهلية بين الأوس والخزرج ، فضلا عما يؤدى إليه من ضعف الإدارة الإسلامية فى وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى سرعة الحسم والحزم والقوة .

واشتد الحوار وتداعى الجدل حتى أوشك المؤتمرون على الخصام والنزاع فتدارك صديق الأمة أبو بكر رضى الله عنه وخاطب الأنصار قائلاً : نحن المهاجرون أول الناس إسلاما والناس لنا تبع ونحن عشيرة رسول الله ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً وليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ، وأنتم

والله الذين أووا ونصروا وأنتم وزراؤنا فى الدين ووزراء رسول الله وأنتم إخواننا فى كتاب الله تعالى وشركاؤنا فى دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء ، و ما كنا فى خير قط إلا كنتم معنا فيه ، وإنى أدعوكم إلى مبايعة أبى عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب . فارتفعت الأصوات وكثر اللغط ، ولكن عمر حسم الموقف فأسرع بمبايعة أبى بكر وعلى أثره بايع أبو عبيدة الجراح ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه ،

ومن الغد بويع أبو بكر فى المسجد مبايعة عامة بعدها ألقى خطاباً يعتبر دستوراً للحكم وسياسة الدولة ، قال : « أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم .. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » (*) .

وهكذا أصبح أبو بكر أول خليفة لرسول الله ﷺ ، ولم يتخلف عن بيعته سوى على بن أبى طالب الذى كان مشغولاً مع بعض بنى هاشم عن اجتماع السقيفة بتجهيز النبى ﷺ للدفن ، فلما بلغه ما تم وجد فى نفسه على أبى بكر ومن بايعه لإبرامهم الأمر دونه متجاهلين مكانته وحقه ، وراجع كثير من الصحابة عليا فى موقفه ودعوه إلى المبايعة درءاً للفتنة والانقسام ، وفيما قاله أبو عبيدة ابن الجراح له : يا بن عم انك حدث السن وهؤلاء مشيخة قومك وليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولكن علياً لم يعلن مبايعته إلا بعد وفاة زوجه فاطمة رضى الله عنها التى توفيت بعد أبيها عليه السلام بشهور قليلة .

ولقد دار جدل كبير بين المؤرخين من أهل السنة والشيعة حول أسباب تخلف على عن المبايعة ، ولكنا نعرض صفحاً عن هذا الجدل ونلجأ إلى صحيح مسلم ، وهو موضع ثقة الطرفين ، لنتبين وجه الحق فى موقف على وأسبابه ، فهو يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « إن فاطمة رضى الله عنها ، بنت رسول الله ﷺ ، أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء

(*) مختصر سيرة ابن هشام/٣١٥ – دار النفائس – بيروت ١٩٨١ ، ووثقه ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٤٤٨/٥ – مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٠ م .

الله عليه بالمدينة وفدك [إحدى قرى خيبر] وما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال : لا نورث ما تركنا صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا [يعنى ببيت المال] وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التى كانت فى عهد رسول الله ﷺ ، ولا أعمل فيها إلا بما عمل رسول الله ﷺ ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً ، فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها زوجها على ابن أبى طالب ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها ، وكانت لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته ، ولم يكن على بايع تلك الأشهر ، فأرسل إلى أبى بكر أن إئتنا ولا يأتين معك أحد ، كراهية أن يحضر عمر بن الخطاب ، فقال عمر لأبى بكر والله لا تدخل عليهم وحدك ، فقال أبو بكر وما عساهم يفعلون بى ؟ والله لآتينهم ، فدخل عليهم أبو بكر ، فتشهد على بن أبى طالب ثم قال : إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكن استبددت علينا بالأمر [لم تشاورنا] وكنا نحن نرى لنا حقا لقرابتنا من رسول الله ﷺ ، فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عينا أبا بكر ، فلما بكى أبا بكر قال : لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتى ، وأما الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال ، فإنى لم آل فيها عن الحق ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته ، فقال على لأبى بكر : موعدك العشية للبيعة . فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر ، رقى المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر إليه ، ثم استغفر على بن أبى طالب وتشهد ، فعظم شأن أبى بكر وقال : ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر حقاً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا ، فسر بذلك المسلمون وقالوا : أصبت أبا الحسن ، وكان المسلمون إلى على قريباً حين راجع الأمر بالمعروف »[٤٠] .

من كل هذا يتضح لنا بما لا ريب فيه أن النبى ﷺ لم يوص لأحد بعده ، وليس فى القرآن إشارة إلى تخصيص أحد بخلافة الرسول ﷺ ، ولو كان هناك شئ من ذلك لما وسع الصحابة ، على منزلة الصديق فيهم ، أن يبايعوه ويتركوا وصية الرسول ﷺ أو ما يشير به القرآن **ويبقى أن أعظم ما قرره الإسلام فى شئون الحكم ، أن الحكم بحسب المصلحة العامة للمسلمين لا بحسب النسب .**

(٤٠) الصديق أبو بكر – محمد حسين هيكل – القاهرة ١٣٦١ هـ .

ثالثاً : قتال مانعى الزكاة :

فقد حدث بعد أن تولى أبو بكر الخلافة أن أمتنع بعض المسلمين خارج المدينة عن دفع الزكاة فاختلف الصحابة فى قتالهم كما كان للممتنعين أنفسهم وجهة نظر ، واستند كل فى موقفه على تفسير معين للنصوص الدينية ، فأبو بكر يصر على قتالهم قتال المرتدين ويعارضه عمر قائلاً : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » ، ويرد عليه أبو بكر قائلاً : « أليس قد قال : (إلا بحقها) ؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، ويصيح فى عمر . يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتنى بخزلانك أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحى وتم الدين ، أو ينقص وأنا حى ؟!

ولكن رغم تمسك كل بموقفه ؛ إلا أنه لم يترتب على هذا شقاق أو أحقاد ، فقد كان منهم اجتهاد فى الحق وللحق ، ولهذا نرى عمر ينصاع فى حب وإخلاص لأمر الخليفة ويقول : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

أما مانعى الزكاة فقد كانت لهم وجهة نظر أخرى يستندون فيها إلى تفسير خاص للنصوص الدينية ، فهم يؤمنون بالزكاة كواجب دينى ولكن لا يعترفون بصرفها لغير الرسول ، وقد مات الرسول ﷺ فلا يجب دفعها لغيره ، واحتجوا بقوله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٤١)

قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا .

---

(٤١) التوبة : ١٠٣ . وانظر المرجع السابق - الصديق أبو بكر .

رابعاً : مقتل عثمان رضى الله عنه :

لما طعن عمر رضى الله عنه بيد أبى لؤلؤة الأثيمة نتيجة مؤامرة سبئية[٤٢] شغل بأمر الأمة عن آلامه فاستدعى على عجل عبدالرحمن بن عوف وعرض عليه الخلافة ، ولكنه أعتذر اشفاقاً على نفسه وأشار ومعه بعض الصحابة على عمر أن يستخلف ابنه عبدالله ، فقال عمر لا يليها رجلان من ولد الخطاب لا اتحملها حياً وميتاً ، إن لم استخلف فقد ترك ذلك من هو خير منى [يقصد رسول الله ﷺ] ، وان استخلف فقد استخلف من هو خير منى [يقصد أبا بكر رضى الله عنه] إن رسول الله ﷺ مات وهو راضى عن هذه الستة من قريش : على ، وعثمان ، وسعد ، والزبير ، وطلحة ، عبدالرحمن ، وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم واحداً منهم ثم أرسل فى طلبهم فلما اجتمعوا إليه قال : يا معشر المهاجرين الأولين ، انى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم ، إنى لا أخاف عليكم أن استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . ثم أمرهم بالإجماع بعد وفاته ليشاوروا فى أمر الخلافة ومعهم عبدالله ابن عمر مشيراً وليس له من الأمر شئ ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم ، ثم أمر أبا طلحة الأنصارى أن يحاصر مكان الاجتماع على رأس خمسين رجلاً من الأنصار ، فإن اجتمع خمسة على رجل وأبى واحد فليقتل ، وان رضى أربعة وامتنع اثنان فليقتلا ، وان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فليحكموا عبدالله بن عمر فمن حكم لهم فمنهم الأمير وان لم يرضوا حكمه فليكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن ابن عوف وليقتل الباقون . ولم يلبث عمر بعد هذه الوصية ثلاثة أيام حتى لحق بربه ، وما أن فرغ المسلمون من دفنه حتى بادروا إلى تنفيذ ما أوصى به .

فاجتمع الستة الذين عينهم عمر فى حراسة أبى طلحة الأنصارى ، ولكنهم لم يصلوا إلى اتفاق فاقترح عليهم عبدالرحمن بن عوف أن يتنازل أحدهم ويتولى اختيار واحد من الخمسة الباقين على أن يحلف بالله ليؤثرن الحق ولا يتبعن الهوى ، فلما لم يتنازل أحد خلع عبدالرحمن نفسه وحلف بالله على إيثار الحق وحلفوا له على الرضا بمن يختار .

---

(٤٢) راجع فى ذلك للمؤلف : السبئيون منهجاً وغاية - دار القلم - الكويت ١٩٨٥ م .

وعلى الفور بدأ عبدالرحمن مشاوراته فاختلى بعلى وقال له : لو لم تكن فى الشورى فمن تختار ؟ قال : عثمان . واختلى بعثمان وطرح عليه نفس السؤال ، فكان جوابه : على . ثم سأل الزبير وسعد وطلحة فاختاروا عثمان ، ثم أخذ يطوف على كبار الصحابة ورؤساء الجند ، فكان لا يخلو برجل إلا أشار بعثمان ، وفى نهاية الوعد الذى ضربه عمر ، دعا عبدالرحمن المسلمين إلى المسجد ولما اجتمع الناس قال لهم ، رأيت الناس لا يعدلون بأحد هذين الرجلين ، على وعثمان ، ثم دعا علياً وقال له : تبايع على كتاب الله وسنة رسوله وعمل أبى بكر وعمر ؟ فقال على : أرجو أن أفعل وأن أعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ثم دعا عثمان وقال له مثل ذلك ، فقال : نعم . دون زيادة ، وكرر عبدالرحمن السؤال على عثمان وعلى ثلاثا ، وفى كل مرة يعطى على جهده وطاقته ، ويعطى عثمان عزيمته ، بعدها أعلن عبدالرحمن ابن عوف مبايعته عثمان فتبعه الناس فى المبايعة ، وبذلك أصبح عثمان بن عفان الخليفة الثالث بعد رسول الله ﷺ(٤٣) .

ولنا هنا وقفة أمام أنموذج فريد لعبقرية صنعها الإسلام فى ثلاث من صحابة رسول الله ﷺ ، وهم : عمر ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعلى بن أبى طالب ، وظهرت تلك العبقرية الإسلامية فى معالجتهم لأمر الحكم والخلافة :

أما عمر ، فإنه لما كان الحاكم المثالى هو من توفر فيه حسن الخلق وقوة البأس ، فحسن الخلق دون البأس يغرى الرعية بالحاكم ، وقوة البأس دون حسن الخلق يغرى الحاكم بالرعية ، ولما كان الشرطان لم يتوفرا لشخص على الوجه الذى توفر فى أبى بكر وعمر ، فقد أراد عمر بجعله الأمر شورى بين عدد معين من الصحابة توفير الشرطين معا ، فمن عينهم يتوفر فيهم حسن الخلق بشهادة الوحى الذى بشرهم بالجنة ومات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ومن زكاه الوحى رضى به الناس ، أما شرط القوة فإنهم باختيارهم واحداً منهم كان الباقون له قوة وجبراً لما قد يكون فيه من نقص فى شرط القوة وكان فى طاعتهم له ضمان أكيد لطاعة الرعية واجتماع الكلمة عليه وهذا فى رأينا هو تفسير لأمر عمر لأبى طلحة الأنصارى أن يقتل الواحد فى مقابل الخمسة والإثنين فى مقابل الأربعة ، ضماناً لتوفر عامل القوة لمن يختاره الخمسة أو الأربعة . صيانة لوحدة الأمة وقطعاً لدابر الفتنة .

(٤٣) انظر تاريخ الإسلام ١/٢٥٤ - ٢٥٧ .

أما عبدالرحمن بن عوف ، فهو أولاً ، قد أدرك بفراسة المؤمن أنه قد ولى عهد البطل الذى يجمع عليه الناس ، وأن الأمر قد أصبح تكافؤ فى الخلق والبأس فخلع نفسه مضحياً بفرصته فى الخلافة حتى يكون هو المرجح لعامل القوة لمن يختاره بعد أن ضمن تأييد الآخرين لهذا الاختيار .

وأما ثانياً ، فقد اختار عثمان الذى أعطى عزيمته على الاقتداء دون على الذى أعطى طاقته فى العلم والاجتهاد ، ليسد باباً كان مواربا فى عهده وهو القول بقداسة على وآل البيت . فهو لم يصرف الأمر عن على تقليلاً من شأنه ، ولكن خوفاً على المسلمين من الفتنة به . فاجتهاد من غير على يأخذه الناس على أنه رأى يحتمل الصواب والخطأ ، أما من على ربما أخذه الناس أو بعضهم على أنه شرع يجب نفاذه ، فخشى عبدالرحمن أنه ربما فى ولاية على ما يفتن الناس فى دينهم وأن يزاد فى الشرع ما ليس فيه هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه ربما أراد أن يؤكد مبدأ عاماً فى الإسلام وهو أن الحكم يقوم على الشورى والصالح العام للمسلمين وليس على النسب أو الوراثة .

أما على فقد آثر الحق على منصب الخلافة حين أعطى الطاقة دون العزيمة فقد أراد أن يؤصل حكم الشرع فى أن الحكم من شئون السياسة الدنيوية وهو مجال للرأى والاجتهاد فيما ليس فيه حكم إلهى ، ولم يقبل أن يعطى العزيمة ولو من باب المناورة فى سبيل أن يؤكد للناس ما يرى أنه الحق ،

وهكذا كان عمر ، وعبدالرحمن ، وعلى ، عبقريات تتجه كلها صوب هدف واحد وهو صالح الإسلام والمسلمين .

وتولى الصحابى الجليل عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة بعد عمر ابن الخطاب ، وقد جاوز السبعين من عمره ، باتفاق وإجماع المسلمين ، فساس الناس بأحسن خلق وأحكم تدبير ، واستمر مد الدعوة الإسلامية فى اندفاعه فكثرت الفتوح وامتلأ بيت المال ، وكان فى عثمان رضى الله عنه رقة الحاشية وبسط اليد مما دعى بعض أقاربه من بنى أمية إلى الاستفادة من منصبه إلى أبعد مدى ، فحرك سلوكهم ما كان كامناً من دعوى الجاهلية والتنافس التقليدى بين بنى هاشم وبين بنى أمية قبل الإسلام وانتشرت الجمعيات السرية تدعو إلى خلع عثمان وتولية غيره ، وكان من أكبر محركى الفتنة رجل يدعى عبد الله بن سبأ « كان يهودياً من أهل اليمن » فأظهر إسلامه وتنقل بين أمصار الإسلام يبث فتنته ويقول : إنه كان

لكل نبى وصى ، وعلى وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه ، وهكذا تضافرت عوامل الشر لتنتهى بسفك دم عثمان الطاهر ظلماً وعدواناً وتعصف نهائياً بوحدة المسلمين ، فقد تكونت حول هذه الحادثة ثلاثة أحزاب رئيسية :

الحزب الأول : يؤيدون القتلة :

وحجتهم أن أساس الحكم العدل والقيام بما أمر الله ومن حاد يحق عزله فإن أبى وأصر على ظلمه فهو كافر ويحق قتله ، تأويلاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٤٤)

وعثمان فى نظرهم حاد عن الحق والشرع فهو كافر ويحل قتله ، وهذا الحزب هو الأساس لفرقة الخوارج فيما بعد .

الحزب الثانى : على النقيض من هذا :

يرى أن عثمان قد انعقدت له البيعة بإجماع المسلمين ، فهو إمام شرعى له حق الطاعة والامتثال تأويلاً لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾(٤٥)

فالخروج عليه خروج على الله ورسوله ، هذا بالإضافة إلى ما عرف عن عثمان من سبقه فى الإسلام وجهاده وهو من الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض كما أنه من العشرة المبشرين بالجنة ، فعثمان قتل بغياً وعدواناً وقتلته عصاة إن لم يكونوا كفرة .

الحزب الثالث : توقف واعتزل الفتنة :

ويعبر عن هذا الموقف ، الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص ، فيقول :

---

(٤٤) المائدة/٤٣ .
(٤٥) النساء/٥٩ .

أمرنى رسول الله ﷺ ، إذا اختلف الناس ، أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد ، فإذا تقطع أتيت منزلى ، فكنت فيه لا أبرحه ، حتى تأتينى يد خاطية ، أو منية قاضية .

خامساً : الخلاف على على رضى الله عنه :

لم يكد المسلمون يفرغون من دفن عثمان رضى الله عنه حتى سارع بعض الصحابة إلى على يعرضون عليه الخلافة ، فقال على : لا حاجة لى فى أمركم ، من اخترتم رضيت به دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن تركتمونى فأنى كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميراً . ولكن تحت إلحاح الصحابة قبل الخلافة .

والواقع أن علياً رضى الله عنه كان بعيد النظر ، فقد أدرك أن عقد المسلمين قد إنفرط بمقتل عثمان رضى الله عنه ، وأن الفتن قد أطلت برأسها الخبيثة فى كل مكان ، فلم يكد يتولى الخلافة حتى وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فطلحة والزبير رضى الله عنهما اللذان كانا بالأمس على رأس الساعين إليه بالخلافة أصبحا اليوم ومعهما أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من أكثر المعارضين له مطالبين إياه بالقصاص من قتلة عثمان ، أما معاية وتحته الشام فإنه يرفع قميص عثمان الملطخ بدمائه الزكية محملاً علياً دم هذا الشهيد الجليل ، أما شيعة على فلم يكن حالهم أقل سوءاً من خصومه ، ففيهم قتلة عثمان الذين ينتمون إلى أكثر القبائل ومعنى القصاص أن يقف على وحده كخليفة دون رعية وهكذا كان المسنقبل كما عبر عنه على رضى الله عنه له وجوه وألوان ، فعلى بين أمرين : إما القصاص من قتلة عثمان رغم أنهم فى معسكره ورغم ما لهم من شبهة تدرأ الحد عنهم فقد قتلوه تأويلاً ، ومعنى القصاص مع افتراض قدرته عليه ، إنفضاض أنصاره ومؤيدوه وربما إنتهى الأمر لا إلى القصاص وإنما إلى خلعه من الخلافة وتصير الأمور فوضى تنتهى بتفكك الدولة والأمة الإسلامية شراذم يقتل بعضها بعضا وتعود الأمور سيرتها الأولى قبل الإسلام وفى هذا ضياع ليس للمسلمين فحسب بل وتهديد للدعوة الإسلامية ذاتها .

أما الأمر الثانى الذى كان على على أن يختاره ، فهو التمسك ببيعته كأمير شرعى للمسلمين جميعاً وعليه أن يعمل على وحدة الدولة واستقرارها ولو أدى الأمر إلى قتال الخارجين عن طاعته وهذا هو الاختيار الأكثر أمنا حيث أن وحدة

الأمة أساس لقوة الدعوة الإسلامية ، وفى سبيل هذا الهدف تهون كل تضحية وكل دم يبذل فداء له وكان أن حزم على أمره وحمل سيفه فى سبيل وحدة الأمة واستقرارها .

ولكن هل تم لعلى ما أراد ، للأسف لم يتم شئ من ذلك ، فعلى كان رجلاً لا ينقصه الإيمان أو الإخلاص أو الشجاعة ، ولكن ينقصه الحنكة السياسة ، وهو نفسه وصف نفسه بحق حينما عرضوا عليه الخلافة فقال : « إعلموا إنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيراً منى أميراً » ، نعم فهو وزير خير منه أمير لأنه فى أخلاقه وطباعه ، أقرب إلى أن يكون فارساً منه حاكماً أو أميراً ، وهذا هو تقدير عمر رضى الله عنه فحين أراده الناس تعيين من يخلفه واقترح عليه بعضهم تعيين على ، قال : « إنه لها لأهل غير أنه رجل فيه دعابة » ، وسئل ابن عباس عما يقصده عمر بوصف على بالدعابة قال : « كان على يرى أنه لا يطلب شيئاً فيعجز عنه وأنه يقدر على كل شئ يطلبه » ، ومن المدهش أن يكون أول عمل يقوم به على كخليفة الدليل الحى على صدق فراسة عمر والمثال العملى لأخلاق الفارس فى على ؛ فما أن بويع بالخلافة حتى بادر بعزل جميع أمراء عثمان وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان ، ولم يلتفت إلى مشورة رجلين من أخلص أنصاره ومن ذوى الرأى والدهاء السياسى . وهما المغيرة ابن شعبة وإبن عباس الذى يقول : « أتيت علياً بعد قتل عثمان فصادفت المغيرة بن شعبة خارجاً من عنده ، فقلت لعلى : ما قال لك هذا ؟، قال : لقد جاءنى من قبل وقال لى إن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس ، وإن الرأى عندى أن تقر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ، ثم اعزل من شئت ، فأبيت عليه ذلك ، وقلت لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى . قال فإن أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فإن فيه جرأة وأهل الشام أطوع له من بنانه ، ولك الحجة فى إثباته فقد ولاه عمر بن الخطاب ، فقلت له : والله لا استعمل معاوية يومين فانصرف وأنا أعرف فيه أنه يود أنى مخطئ ، ثم عاد اليوم يؤكد صواب رأيى وخطأ رأيه ! فقلت لعلى : أما المرة الأولى فقد نصحك ، وأما الثانية فقد غشك ! قال : ولم ؟! قلت لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى الأمر ومتى عزلتهم يقولون ، أخذ هذا الأمر بغير شورى ويتهمونك فى قتل عثمان ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام وأهل العراق ، مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك ، وأنا أشير

عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلى أن أخلعه من منزله . قال على : والله لا أعطيه إلا السيف ! فقلت يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأى فى الحرب ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحرب خدعة ؟ فقال يا بن عباس لست من هنياتك ولا هينات معاوية فى شئ »[٤٥] .

وهكذا بدأ الخلاف على على من أول يوم من خلافته ، فبعد أن ولى الخلافة باتفاق أولى الرأى من الصحابة لم يلبث أن خرج عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة رضى الله عنهم جميعاً متهمين إياه بخذلان عثمان والتراخى فى القصاص من قتلته ، وتطور الخلاف إلى القتال فى موقعة (الجمل) والتى انتهت بقتل طلحة والزبير وعشرة آلاف مسلم من خيرة الصحابة ورجوع عائشة أم المؤمنين عن موقفها ، ويعتبر هذا أول قتال بين المسلمين فى الإسلام ، ومن جهة أخرى فقد خرج عليه الأمويون بقيادة معاوية ابن أبى سفيان مطالبين بالثأر لعثمان وتطور الأمر إلى القتال فى موقعة (صفين) بانشقاق معسكر على إلى أول فرقتين فى الإسلام ، وهما الخوارج الذين انقلبوا على على لقبوله التحكيم ، والشيعة الذين ظلوا على تأييدهم له ، وتراشق الفريقان التهم حتى كفر بعضهم بعضاً ودار القتال بينهم ، ومن العجيب أن كل فريق كان يستند فى موقفه إلى تفسير خاص للنصوص الدينية يؤولها بما يخدم وجهة نظره ودعواه .

فى هذا الجو العاصف والخانق تردد على الألسنة سؤال من وحى الفتنة : ترى ما حكم هؤلاء الذين يقتلون بعضهم بعضاً ، وتلك أكبر الكبائر ، فى نظر الشرع ؟، هل هذا قضاء وقدر حل بالأمة الإسلامية ، وأصاب وحدتها ؟! ثم ما مسئولية هؤلاء عن كل هذا أمام الله ؟

وهكذا بدأ البحث فى علاقة العمل بالإيمان ، والبحث فى علاقة الإنسان بالله ، هل الإنسان مخير ، أم مسير ؟ ما هى حدود المسئولية الإنسانية وقيمتها ؟

ثم تداعى البحث بتداعى الفتن ، أو تداعت الفتن والفرقة ، بتداعى البحث والجدل فى أمور الدين والعقائد المقدسة ، وفقد المسلمون صفاء عقولهم وأمن قلوبهم ، وانتقل الإيمان من قلوبهم إلى عقلوهم ، فأخضعوا النصوص المقدسة لأهوائهم وأغراضهم ، وبعد أن كانوا يتسابقون فى اعتزاز وفخر للخضوع والإذعان والطاعة لكل ما يشير به الوحى . (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) أصبحوا كما أصبحنا خرافاً هائمة فى غابة تسكنها ذئاب مسعورة .

(٤٦) التاريخ الإسلامى جـ ١ ص ٣٤٩ .

فلم تكد تهدأ المعركة فى (صفين) حتى قامت معركة أشد ضراوة وفتكاً بالمسلمين ، تلك هى معركة الفرق الكلامية التى بلغت كما يقول المؤرخون أكثر من سبعين فرقة ، نذكر فيما يلى ، عرضاً ملخصاً لأهم تلك الفرق ومبادئها كمثال نضربه للتمييز بين الملة والنحلة أو الدين والرأى فى التراث الإسلامى .

ولكن ينبغى التنبيه هنا إلى فارق جوهرى بين دور الفرق فى الديانات الثلاثة ، فإنه بينما يمكن القول بأن فرق اليهود والمسيحين قامت بدور بارز فى بناء اليهودية والمسيحية بوضعها الراهن ، بشكل لا نستطيع معه ، اعتماداً على وثائقها الدينية ، تمييز الملة من النحلة فيهما ، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة للفرق الإسلامية التى يمكن بسهولة نقد آراءها وتمييز الملة من النحلة فى معتقداتها ومذاهبها ومقدار بعدها أو قربها من الدين كما نزل به الوحى الذى يمثله بين أيدينا الآن القرآن والأحاديث الصحيحة فقط باتفاق الفرق الإسلامية جميعاً .

بمعنى أنه إذا لم يكن عند اليهود والمسيحيين من معيار موضوعى يتفقون عليه فى نقد فرقهم وتمييز الملة من النحلة فى مذاهبهم إلا ما تعترف به الفرق من وثائق مختلفون فى الاتفاق عليها أو التسليم بها ، فإن القرآن الكريم يمثل المعيار الفوقى الذى تتفق كل الفرق الإسلامية عليه كمعيار وحيد له القوامة والهيمنة على آرائها ومذاهبها والذى يعتمد عليه المسلمون فى تمييز الملة من النحلة فى آراء تلك الفرق ومذاهبها .

فليس للفرق الإسلامية العصمة أو القداسة التى للفرق اليهودية والمسيحية عند أتباعها ، وليس لها نفس الدور الذى قامت به تلك الفرق فى بناء دينها بشكل ربما يختلف كلية عنه فى صورته التى نزل بها . بل على العكس من ذلك فإن معظم علماء المسلمين يجعلون من الفرق الإسلامية واختلافاتها سببا رئيسيا فى ضعف المسلمين وانحسار الدعوة الإسلامية .

الخـوارج

وهم أول فرقة ظهرت فى التاريخ الإسلامي ، لها مذهب وتفسير خاص فى المسائل الاعتقادية .

واسم الخوارج جاء من أنهم خرجوا على على ، وإن كان من الخوارج من يشتق هذا الاسم من الخروج فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾[47]

ومنهم من سموا أنفسهم « الشراه » أى أنهم باعوا أنفسهم لله أخذاً من قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[48]

وهذه التأويلات تعطينا الدلالة ، على أن الخوارج يلتمسون تأييد موقفهم من القرآن وتفسيره بما يؤيد دعواهم .

وقد حاربهم على فى موقعة شهيرة ، تعرف بوقعة « النهروان » فهزمهم وأباد عدداً كثيراً منهم ، إلا أنه لم يقض عليهم تماماً ، بل تمكنوا من اغتياله على يد رجل منهم يدعى عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ ، وبعد موقعة النهروان انقسم الخوارج إلى فرعين :

---

(٤٧) النساء/١٠٠ .
(٤٨) البقرة/٢٠٧ .

أحدهما بالعراق وما حولها واتخذوا البطائح بالقرب من البصرة مركزاً لهم ، وقد استولوا على كرمان وفارس كما هددوا البصرة ، واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق ، وقطرى بن الفجاءة .

الثانى : بجزيرة العرب ، وقد استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف ، ومن أشهر زعمائهم ، أبو طالوت ، ونجدة بن عامر ، وأبو فديك .

ما يجمع عليه الخوارج :

والخوارج على اختلاف فرقها تجمع عن أمرين :

الأول : الإمامة ليست من أصول الدين ، بل هى أمر دنيوى ، تقوم بالاختيار الحر لمن يرى فيه القدرة على رعاية المصلحة العامة للمسلمين ، وإذا تم اختيار الإمام ، فلا يجوز عزله ، إلا إذا خرج عن الشرع والعمل به ، فإن حاد عن الاستقامة عزل وإن رفض يحل قتله ، ولهذا فهم يتبرؤون من عثمان وعلى ، لأنهما فى نظرهم انحرفا عن الحكم بما أنزل الله ، كما يكفرون أصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه ، وكل من خالفهم من المسلمين .

الثانى : مرتكب الكبيرة كافر ، لأن الإسلام لا يتحقق إلا بإجتماع ثلاثة أمور : الإقرار باللسان ، والتصديق بالقلب ، والعمل ، فالعمل ركن من الإسلام ، فمن خالف أمراً أو نهياً للشرع ، يكون كافراً .

والخوارج استنفدوا كثيراً من جهد ودماء المسلمين ، ويلاحظ أن آراءهم تدور فى جوهرها حول أمور عملية ، فقد ظلت الكبيرة هى المحور الذى تدور حوله أفكارهم وكانت السبب فى اختلافهم فيما بينهم إلى فرق عديدة يكفر بعضها بعضاً ، كما أنهم يفترقون لأوهى الأسباب ، مما يؤكد الطابع البدوى ، وضحالة التراث العلمى أو الفكرى عندهم ، مما كان سبباً فى انقراضهم سريعاً وعدم إسهامهم بنصيب يذكر فى حركة الفكر الإسلامي[٤٩] .

---

(٤٩) انظر الملل والنحل جـ ١ .

والشيعة إذا أخذت بمعناها العام وهو النصرة أو الموافقة ، كانت صفة تشمل كل من ناصر علياً سواء قبل خلافته أو بعدها ، من جمهور المسلمين والصحابة ، أما إذا قصد بها الذين كان لهم رأى واعتقاد معين فى شخص على وخلافته وأراء دينية فى الإمامة ، وهو ما نعنيه هنا ، كانت لقباً يطلق على جماعة خاصة من أنصار على ، لهم رأى واعتقاد معين دعوا إليه بالرأى والسيف ، ودافعوا عنه كذلك بالرأى والسيف .

والتشيع كمذهب أو حزب لعلى ، انضم إليه نوعيات مختلفة بأغراض مختلفة .

– فمنهم من تشيع لعلى ، لاعتقاده بأحقيته فى الخلافة ، ليس لأنها أمر دينى أو إلهى ، وإنما لصفات رأوها فيه تجعله أحق من غيره فى تولى هذا المنصب الخطير .

– ومنهم من تشيع له لا حباً فيه ولا حماساً لكفاءته ، وإنما كرهاً فى الأمويين والعباسيين .

– ومنهم من تشيع لعلى متأثراً فى ذلك باعتقاد خاص فى الحكم وأصوله ، مثل الذين أسلموا من الفرس ، فقد نشأوا على تعظيم وإجلال البيت المالك وتقديسه ، فلما دخلوا الإسلام نظروا إلى النبى ﷺ وآله بيته نظرة كسروية ، فإذا مات النبى ﷺ ، فأحق الناس بخلافته هم أهل بيته .

– ومنهم من تشيع لعلى ، لا حباً فيه بل كرهاً فى الإسلام وأهله ، فاتخذوا من على وأولاده مطية لتحقيق أغراضهم الخبيثة وبث روح الفرقة والانقسام بين المسلمين وتفتيت وحدتهم ، عن طريق تشويش اعتقاداتهم وإفساد دينهم حتى يتم القضاء عليهم .

والتشيع ، كفرقة كلامية لها رأى واعتقادات خاصة فى على وخلافته ، أو اتخذت من على أداة لنشر فكر ودعاوى معينة ، انقسمت إلى فرق عديدة حفلت

بها كتب التاريخ والمؤرخين ، وإن كان يمكن حصر أسباب هذه الانقسامات فى أمرين :

الأول : الاختلاف فى الاعتقاد والرأى :

فمنهم المغالى المتطرف الذى يأخذ من قضية الإمامة سبيلاً إلى تحقيق أهداف هدامة للإسلام والمسلمين ونشر عقائد غريبة عن الإسلام .

ومنهم المعتدل الذى تدور تعاليمه حول قضية الإمامة فقط ، واعتقاده بأحقية على وتفضيله فيها على من سواه ، دون تفكير لمن خالفهم ، ولا يتجاوزون هذه المسألة إلى تقرير عقائد أخرى كالفريق الأول ، فهم فى غير قضية الإمامية يلتقون إلى حد بعيد فى الأمور الدينية مع غيرهم من جمهور المسلمين .

الثانى : الاختلاف فى تعيين الأئمة :

فقد أعقب على وأبناؤه كثيرين ، فاختلفت الشيعة فيما بينهم على تعيين الأئمة من ذرية على ومسار الإمامة فيهم ، فمنهم من يقف عند إمام معين ، ويقول برجعته ، ومنهم من يصرفها فى عقبه ، ومنهم من يصرفها إلى أخوته وهكذا .

وقد حفلت كتب المؤرخين مثل الشهرستانى فى « الملل والنحل » والبغدادى فى « الفرق بين الفرق » وابن حزم فى « الفصل والملل والأهواء والنحل » ، بتفصيلات كثيرة فى هذا الشأن ، ويمكن الرجوع إليها لمن شاء ، ويعنينا هنا ذكر أهم فرقتين لهما وزن فى تاريخ التشيع ، كما أنهما يمثلان كلا الاتجاهين أعنى – الغلاة ، والمعتدلين – وهما :

الإمامية . وتمثل الاتجاه المتطرف :
والزيدية وتمثل الاتجاه المعتدل .

الإماميـــة

سموا بهذا الإسم لأنهم اتخذوا من مسألة الإمامة نقطة الارتكاز لنشر كل تعاليمهم ، التى تجاوزت كثيراً النظر فى الإمامة وشروطها ، إلى بث مبادئ وعقائد غريبة عن الإسلام ، ورأس هؤلاء ، عبدالله بن سبأ ، كان يهودياً ثم أعلن إسلامه فى عهد عثمان ، وغلا فى على ، حتى زعم أن الله حل فيه ، وأخذ يدعو أنه أحق بالخلافة ، وطعن على عثمان فنفاه ، فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته فأخرج منها ، فذهب إلى الكوفة ونشر دعوته وصدقه كثير من العامة والجهلاء ولما عظم خطره نفى منها ، فذهب إلى دمشق ولكنه لم يجد لدعوته صدى فيها ، فذهب إلى مصر ، فجند أعواناً ودعاة لفتنته التى انتهت بقتل عثمان رضى الله عنه[٤٩] .

وأساس دعوته أن الإمامة أمر إلهى ، يجب على كل رسول أو إمام أن يعين من يخلفه ، وقد وصى الرسول ﷺ لعلى بالخلافة ، إلا أن أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة تواطأوا على إخفاء النصوص التى تؤكد حق على فى الخلافة ، ولهذا فهم أولاً ، مغتصبون لحق على فى الإمامة ، وثانياً وهو الغرض الحقيقى من دعوته ، مدلسون فى الدين ، غير أمناء عليه ، ولا يحق لأحد أن يأخذ شيئاً من أمور دينه عنهم ، فإذا كانوا هم الذين قاموا بجمع القرآن ونقل كثير من أحاديث الرسول ، فالنتيجة التى يبغى ابن سبأ الوصول إليها ، هى تشكيك المسلمين فى المصادر الأصلية للدين .

ومن هنا نستطيع القول بأن نظرية الإمامة ، نظرية غريبة على الفكر الإسلامي ومدسوسة عليه بهدف إفساد عقائد المسلمين وهدم وحدتهم ثم القضاء عليهم .

---

(٥٠) انظر تاريخ الطبرى ٣٧٨/٣ – ٣٧٩ – مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٩ م ، الفصل فى الملل والنحل ١١/٢ دار المثنى بغداد .

تعاليمهم :

أولاً : عصمة الأئمة ووجوب اتباعهم :

الأئمة معصمون من الخطأ وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن لأنهم معينون من قبل الله ورسوله لهداية الناس ، فهم مقدسون ومعصومون ، والإمام يتلقى علمه عن طريق الوحى ، ويعده الله إعداداً خاصاً من وقت أن يكون نطفة فيحفظه ويعصمه من الذنوب صغيرها وكبيرها ، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين . ويطلعه على الغيب ، ما كان وما يكون إلى آخر الزمان ، وهو المرجع الوحيد فى معرفة الحق والباطل ، فالإيمان به واتباعه ومعرفته جزء من الإيمان ، بل هو الإيمان كله ، فلا تضر مع معرفته معصية ، كما لا تنفع مع جهلة طاعة ، فالصلاة والصوم والزكاة والحج لا تنفع دون معرفته وطاعته . لأنه المرجع فى القول والعمل ، حيث إنهم لا يعينون من قبل الناس ، وإنما الذى يعينهم هو الله ورسوله بالنص عليهم واحداً فواحداً فطاعتهم واجبة بدليل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(٥١)

يقولون : نزلت هذه الاية فى على والحسن والحسين ، وقوله ﷺ : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

ونصوص أخرى كثيرة يؤولونها تأويلاً متعسفاً لخدمة مذهبهم(٥٢).

والملائكة تدخل بيوت الأئمة وتطأ بسطهم ، وتأتيهم بالأخبار ، وتعرض عليهم أعمال الناس ، وليس من الحق من أيدى الناس ، إلا ما خرج من عند الأئمة ، وأن كل شئ لم يخرج من عندهم فهو باطل ، لأن الأرض كلها ملك الإمام متأولين قوله تعالى :

---

(٥١) النساء/٥٩ .

(٥٢) انظر زاد المعاد ٢/٣ – ٣ – ابن القيم الجوزى – دار الفكر – بيروت ١٩٧٢ م حيث شكك فيه أهل الحديث .

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٥٣)

فأهل البيت هم الورثة وهم المتقون ، وهم الذين يوزعون خيرات الأرض فى المقاصد التى يرونها ، كما أنهم الذين يملكون الشفاعة ، فمن أقر بإمامتهم وعصمتهم ، استحق شفاعتهم يوم القيامة . لأن الإعتقاد فى الإمام كاف فى محو السيئات ورفع الدرجات ، أى أن مقياس الإيمان والثواب والعقاب هو معرفة الإمام والإقرار به وطاعته ، ومن وصل إلى هذه الدرجة يسقط عنه التكاليف والأحكام .

ثانياً : القول بأن للنصوص الدينية ظاهر وباطن :

الظاهر ليس مقصوداً لذاته أو العمل به ، وإنما هو وسيلة فقط لترويض الناس على الطاعة . وتلقى ما تحت هذه الظواهر من أسرار وغايات خفية ، لا يعلمها إلا الأئمة ، وهى المقصود الأصلى للدين ، فلا يؤمن الإنسان حتى يعرفها ، ولا يعرفها إلا عن الإمام ، فيكون الإيمان فى جوهره هو معرفة الإمام وطاعته .

ثانياً : التقية :

ومعناها ، أن يظهر الإنسان غير ما يبطن إذا خاف على نفسه أو ماله أو عرضه ، والتقية عند الشيعة الإمامية جزء مكمل لتعاليمهم ، تواصوا بها كمبدأ رئيسى فى دعوتهم ، كما أنها السبب فى الغموض والتضارب الذى يقع فيه المؤرخون عنهم ، وبهذا المبدأ استطاعوا أن يفسروا كثيراً من مواقف الأئمة ، فقالوا مثلاً : أن سكوت على رضى الله عنه على اغتصاب أبى بكر وعمر حقه فى الخلافة . كان تقية ، واختفاء بعض الأئمة ، كان تقية ، وجعل الكلام له ظاهر وباطن ، تقية ، وهكذا .

هذه هى خلاصة المبادئ التى يجمع عليها الإمامية على اختلاف فرقهم ، نقلناها على أوثق مصادرهم التى يعترفون بها ، وعن أوثق من أرخ لهم مثل الشهرستانى فى « الملل والنحل » والبغدادى فى الفرق بين الفرق ، والغزالى فى « فضائح الباطنية » وابن خلدون فى مقدمته ، وأحمد أمين فى فجر الإسلام جـ ٣ .

---

(٥٣) الأعراف ١٢٨ .

الزيديـــة

وهي الجناح المعتدل من الشيعة ، وسنعرض لهم من خلال سيرة الإمام زيد نفسه ، لأن الضابط فى عرض فرق الشيعة ينبغى أن يكون المقالة نفسها ، وهذا يعنى أن الفرق التى تنسب نفسها إلى الزيدية ، إلا أنها تقول بما تقوله الإمامية ، تعتبر فى نظرنا من فرق الإمامية مبدأ ومقالة ولنضرب لذلك مثالاً :

فالشهرستانى مثلاً : يذكر بعض الفرق على أنها من فرق الزيدية ، رغم أنه يقول عنهم : (ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول ، وطعنت فى الصحابة طعن الإمامية ، وهم أصناف ثلاثة : جارودية وسليمانية ، وبترية)(٥٤) ، فتلك الفرق ، تعتبر فى نظرنا من فرق الإمامية ما دامت قد قالت بمقالتها ، فالعبرة بالاعتقاد لا بالإنتساب ، وهذا هو المنهج الذى نعرض به فرق الشيعة .

والزيدية هم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عن المؤمنين منهم جميعاً ، وكان زيد يمتاز بالخلق والعلم ، واجتهد فى تحصيل الأصول والفروع حتى بلغ الغاية فيهما ، تتلمذ على واصل بن عطاء رأس المعتزلة فى الأصول ، ولذلك ترى الزيدية يدينون بمذهب الإعتزال فى العقائد ، وقد خرج عليه معظم الشيعة لأنه لم يتبرأ من أبى بكر وعمر وعثمان وقال بصحة خلافتهم .

دعوته :

وكانت دعوة زيد رضى الله عنه تقوم على مبدأين :

الأول : الثأر من الأمويين قتلة جده الحسين .

الثانى : أحقيته بالخلافة من خصومه الأمويين الذين اغتصبوا حق جده على ابن أبى طالب فيها .

---

(٥٤) الملل والنحل ١/١٤٠ .

لهذا خرج لقتال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى رغم نصح المقربين له وخوفهم عليه من القتل كما حدث لجده الحسين ، إلا أنه لم يلتفت إليهم ، وبعث الدعاة لأهل العراق المشجعين له والناقمين على حكم بنى أمية ، وكانت بيعته التى بايع عليها الناس نصها ما يلى : (إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وأعطاء المؤمنين ، وقسم الفئ بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا ، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم) .

وتلك البيعة تلخص فكر واعتقاد زيد وغايته الإصلاحية .

وبعد أن استوثق البيعة من أتباعه ، واطمأن إلى كثرة عددهم ، وتمام استعدادهم ، أمر بالخروج لقتال الأمويين ، إلا أنه عندما بدأت المعركة انفض عنه معظم أتباعه ، فقاتل بمن بقى معه حتى استشهد رضى الله عنه وحملت رأسه إلى هشام بن عبدالملك سنة ١٢٢ هـ .

تعاليمهم :

ونسوقها كما عرضها الشهرستانى فى الملل والنحل يقول :

– أتباع زيد بن على ساقوا الأمامة فى أولاد فاطمة ، ولم يجوزوا ثبوت أمامة فى غيرهم (أى نسل على من نسائه الأخرى) .

– جوزوا أن يكون كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج للأمامة يكون إماماً واجب الطاعة ، سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين .

– جوزوا خروج إمامين فى قطرين يستجمعان هذه الخصال ، ويكون لكل واحد منهما حق الطاعة .

– كان من مذهبه (أى زيد) جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فقال ، كان على بن أبى طالب رضى الله عنه أفضل الصحابة . إلا أن الخلافة فوضت لأبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً وسيف أمير المؤمنين على ، عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة

والتقدم فى السن والسبق فى الإسلام ، والقرب من رسول الله ﷺ ، ألا ترى أنه لما أراد (يقصد أبى بكر) فى مرضه الذى مات فيه تقليد الأمر عمر بن الخطاب ، زعق الناس ، وقالوا : لقد وليت علينا فظاً غليظاً ، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لشدته وصلابته وغلظه فى الدين وفظاظته على الأعداء ، حتى سكنهم أبو بكر بقوله : لو سألنى ربى لقلت وليت عليهم خيرهم لهم »(٥٥) .

– وهذا القول عن زيد يتبين منه إجلاله واحترامه لأبى بكر وعمر ، ولو أنه يرى أن علياً أفضل إلا أن المصلحة العامة يجب مراعاتها فى تولية الإمام ، ولم يشر زيد إلى حقوق إلهية أو روحية يستحق بها على الخلافة .

فالزيدية إذن ، فى تعاليمهم أقرب إلى أهل السنة وجماعة المسلمين لأنهم لا يقولون فى المسائل الإعتقادية بأمور تشذ عن غيرهم من فرق المتكلمين مثل المعتزلة وغيرهم ، ويمكن أن نقول أن نظرتهم إلى الإمامة نظرة سياسية أكثر منها دينية أصولية كما أرادها الغلاة من الشيعة ، فهم لا يقولون بعصمة الإمام . ولا يكفرون أو يتبرأون من مخالفيهم ، كما أنهم يشترطون فى الإمام الإجتهاد على أساس الكتاب والسنة الصحيحة ، ولذلك كثر فيهم الإجتهاد وكثرت آراؤهم الفقهية ونبغ منهم كثير فى الأصول والفروع .

---

(٥٥) ١/٣٨ .

المرجئة

والمرجئة تعتبر مذهباً وسطاً ظهر ثمرة للصراع ، بين الشيعة ، الذين يكفرون من عداهم ممن لا يؤمن بالإمامة ، وبين الخوارج ، الذين يكفرون مرتكب الكبيرة ويكفرون من عداهم ، فى هذا الجو ظهرت نظرية الأرجاء ومعناها ، تفويض الحكم على المسلم العاصى المقر بالشهادتين إلى الله تعالى ، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، ثم تطور هذا القول إلى مذهب له مبادئه الكلامية ، التى تتلخص فى تلك الجملة : « لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة » .

فهم على اختلاف فرقهم ، تدور مبادئهم حول مفهوم الإيمان ، وعلاقته بالعمل ، وإجماعهم على عدم تكفير صاحب الكبيرة . كما ذهب إلى ذلك الخوارج أو تخليدهم فى النار كما ذهب إلى ذلك المعتزلة .

والمرجئة وإن اعتبروا أكثر المذاهب تسامحاً ، إلا أن فكرهم ينم عن سطحية ، ولهذا لم يكن لهم كبير شأن فى الحركة الفكرية للمسلمين[٥٦] .

---

(٥٦) انظر جـ ١ ص ١٢٥ - ١٣٠ .

وهم أول من بحث في الله وصفاته ، ومسئولية الإنسان أمام الله ، بما يعرف بمشكلة القدر ، بحثاً فلسفياً ، يقول الشهرستانى : (وأما الإختلافات فى الأصول فحدث فى آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، ويونس الأسوارى . فى القول بالقدر ، وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر ، ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزال ، وكان تلميذ الحسن البصرى ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها مناهج الكلام)[٥٧] .

فالمعتزلة كانوا أول فرقة فى الإسلام بحثت فى العقائد بحثاً فلسفياً عقلياً أما أشهر فرقهم فهى :

أولاً : الواصلية :

وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزل رأس المعتزلة المتوفى سنة ١٣١ هـ .

تعاليمهم :

١ – القول بنفى الصفات زائدة على الذات :

بمعنى أن صفات الله ، من حياة وقدرة وعلم وإرادة وغيرها « إنما هى صفات سلبية لا تقتضى للذات شيئاً زائداً عليها « فالعلم معناه ، نفى الجهل عن ذاته تعالى ، والقدرة معناها ، نفى العجز عن ذاته تعالى ، وهكذا فى باقى الصفات » .

٢ – القول بالقدر :

ومعناه « عدم إسناد ما يصدر عن الإنسان من خير أو شر إلى القدر ، فالإنسان هو الذى يخلق أفعاله الاختيارية وهو المسئول عنها .

---

(٥٧) الملل والنحل ١/٣٥ – ٣٦ .

٣ – القول بالمنزلة بين المنزلتين :

وهو رأيهم فى مرتكب الكبيرة ، وأول من قال به واصل بن عطاء ، عندما استفتى أستاذه الحسن البصرى فى حكم مرتكب الكبيرة ، وقبل أن يجيب ، قال واصل : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو منزلة بينهما ، ثم انتحى ناحية من المسجد يقرر مذهبه .

فقال الحسن : اعتزلنا واصل ، وهذا أشهر ما قيل فى سبب تسميتهم بالمعتزلة .

٤ – يقول فى أصحاب الجمل وصفين ، أن أحدهما مخطئ لا بعينه :

فأحد الفريقين فاسق لا محالة ، كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا محالة لكن لا بعينه ، ومن هنا فإن الواصلية يردون شهادة الجميع ، ولا يأخذون ما يروونه من أحاديث الرسول ﷺ .

ثانياً : الهزيلية :

وهم أصحاب أبى الهزيل حمدان بن الهزيل العلاف رئيس المعتزلة فى عصره ، وهو أول من خلط مبادئ المعتزلة بالفلسفة اليونانية ، وتوفى سنة ٢٣٥ هـ وقد انفرد عن الواصلية بأقوال أهمها :

١ – إن أهل الجنة والنار يصيرون إلى سكون دائم .

٢ – لا تخلو الأرض عن جماعة هم أولياء الله ، معصمون لا يكذبون وهم الحجة فى الأحكام ويؤخذ عنهم الدين ، أما التواتر فليس مصدراً يعتمد عليه . إذ يجوز أن يكذب الجماعة مهما كثر عددهم ، إذ لم يكونوا أولياء الله عصمهم من الخطأ ، وهذا القول قريب من مذهب الإمامية .

ثالثاً : النظامية :

وهم أصحاب إبراهيم بن يسار بن هانئ النظام البصرى ، كان تلميذاً للعلاف ، ثم انفرد عنه وكون مذهباً خاصاً به ، وعاش فى بغداد حيث توفى شاباً سنة ٢٢١ هـ .

تعاليمه :

١ – زاد على القول بالقدر ، قوله أن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى ، وإنما قدرته تتعلق فقط بما فيه صلاح العباد ، ولا يقدر على فعل ما ليس فيه صلاحهم ، وقد تأثر النظام فى هذا القول بالفلسفة اليونانية حيث ذهبت إلى أن الجواد لا يجوز أن يدخر شيئاً ، لا يفعله ، فما أبدعه وأوجده هو المقدور له ، ولو كان فى علمه ما هو أفضل مما أبدعه وأوجده لفعل .

٢ – وافق الفلاسفة فى نفى الجزء الذى لا يتجزأ ، وهى قضية دار الجدل فيها طويلاً فى الفلسفة اليونانية واتخذها المتكلمون فى الإسلام أساساً بنوا عليه بناءهم العقدى .

٣ – يذهب كما ذهب الشيعة الإمامية إلى إنكار الإجماع كأصل من أصول الأحكام الشرعية ، فأنكر حجيته الشرعية ، وكذلك القياس ، وإنما الحجة عنده هو الإمام المعصوم ، والنبى ﷺ قد نص على خلافة على بعده ، ولكن أبا بكر وعمر وعثمان أخفوا هذه النصوص لاغتصاب حق على فى الخلافة .

٤ – القول بالحسن والقبح العقلى ، فالحسن ما حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل ، والشرع إنما يأتى مصدقاً لحكم العقل فى الأشياء والأفعال وعلى هذا يكون التكليف بالعقل لا بالشرع ، فيجب على الإنسان الإيمان بالله قبل ورود أمر الشرع بذلك .

رابعاً : الخابطية والحدثية :

وهم أصحاب تلميذين من تلاميذ النظام يدعى الأول أحمد بن خابط ، وأما الثانى فيدعى الفضل الحدثى ، وقد تأثرا بالفلسفة اليونانية مثل أستاذهما وانفردا عنه بثلاث مقالات :

١ – قولهم فى عيسى مثل ما قال النصارى إنه هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة .

٢ – القول بالتناسخ . لأن الله خلق الناس أصحاء عقلاً وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ثم كلفهم شكره وطاعته فمن أطاعه فى كل ما أمر فهو فى الجنة خالداً فيها ، ومن عصاه فى كل أمر فمقره النار خالداً فيها ، أما من كان بين

بين ، فسيظل فى الدنيا يموت ويحيا ، تتعذب روحه بالتقلب بين الأجساد الإنسانية والحيوانية على قدر ذنوبه .

٣ - إنكار رؤية الله تعالى ويؤولون النصوص التى تفيد الرؤية ويردوها إلى قوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

خامساً : البشرية :

وهم أصحاب بشر بن المعتمر مؤسس مدرسة الاعتزال ببغداد توفى سنة ٢١٠ هـ .

وأهم ما أضافه ، القول بنظرية التولد .. ومعناه الأثر المتولد عن الفعل .

فالمعتزلة كما رأينا يقرون أن الإنسان هو الخالق لأفعاله الاختيارية ، وقد ثار على هذا تساؤل عن الأعمال التى لا تكون من فعل العبد وإنما تكون نتيجة أو أثراً لأفعاله ، فمثلاً إذا ضرب إنسان إنساناً آخر ، فلا شك أن الضرب من فعل الضارب ولكن الألم المترتب على الضرب ليس من فعله ، وإنما هو متولد عن الفعل ، فهل الألم المتولد عن الضرب يحاسب عليه الضارب أولا ؟

فذهب بشر إلى أن المتولدات كلها ثمار لفعل الإنسان وخلقه فهو مسئول عنها مسئوليته عن الفعل الأصلى .

سادساً : الثمامية :

واهم أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى الذى عاصر الرشيد والمأمون ، يقول عنه الشهرستانى : (كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس)[٥٨] .

---

(٥٨) الملل والنحل ١/٦٨ .

وأهم ما أضافه مقالتين :

١ - عارض بشر بن المعتمر فى نظرية التولد فذهب إلى أن المتولدات لا فاعل لها ، لأنه لا يمكن إضافتها إلى فاعل أسبابها ، فالإنسان إذا فعل فعلاً ومات ثم تولد عن فعله شئ بعد موته ، فلا يمكن إضافته إليه ولا محاسبته عليه . كما لا يمكن إضافته إلى الله تعالى ، لأنه يؤدى إلى إسناد القبيح إليه تعالى ، وهذا باطل ومحال ، فيبقى أن المتولدات لا فاعل لها .

٢ - الكفار وغير المكلفين يصيرون إلى تراب يوم القيامة ، وفى هذا إنكار لبعثهم وعذابهم فى النار .

سابعاً : المردادية :

وهم أصحاب عيسى بن صبيح الملقب بالمرداد ، وكان تلميذ البشر بن المعتمر وانفرد عنه بمقالات أهمها :

١ - الناس قادرون على الإتيان بمثل القرآن ، وإعجازه جاء من أن الله خلق القرآن فى اللوح المحفوظ ، والقرآن الذى بين أيدينا حكاية عنه .

٣ - تكفير من قال إن أفعال العباد مخلوقة لله ، لأن فى هذا إسناد الشر إلى الله تعالى وهذا كفر .

٤ - تكفير من قال بإمكان رؤية الله لأن فى هذا تجسيم والله منزه عن الجسمية وتوابعها .

وقد غالت المردادية فى تقدير مبادئ المعتزلة إلى حد أنهم كفروا كل من خالفهم ، وهم فى هذا مثل الخوارج سواء بسواء ، فمعيار الكفر عندهم هو مخالفة المعتزلة أكثر مما هو مخالفة الإسلام . لأنهم يعتقدون أن الإسلام هو ما يقولون به دون غيرهم .

ثامناً : الجاحظية :

وهم أصحاب عمر بن بحر أبى عثمان الجاحظ ، كان تلميذاً للنظام وامتداداً لمنهجه وفلسفته توفى سنة ٢٥٥ هـ .

تعاليمه :

١ - المعارف كلها ضرورية ، بمعنى أن الإنسان مثلاً يفتح عينيه بإرادته وهذا كسبه ، أما ما يشاهده بهما من الألوان والأشكال فإنما يقع فى باصرته بالطبع والاضطرار .

٢ - رتب الجاحظ على مذهبه هذا ، القول بأن من لم تبلغه الدعوة أو بلغته ولكنه عجز عن درك الحق فيها ، فهو معذور ولا إثم عليه فلا يكون كافراً .

٣ - من عرف الإسلام كما تفهمه المعتزلة فهو مؤمن حقاً ، أما من عرف ذلك وجحده وقال بالتشبيه أو الجبر ، فهو مشرك حقاً ، وإن لم ينظر فى شئ من ذلك وآمن بالله ورسوله فهو مؤمن لا شئ عليه .

وهكذا نجد الجاحظ يكفر الفرق الأخرى من المتكلمين ، وإن كان أقل تطرفاً من المرداد ، حيث قد اشترط فى الكفر العلم بمذهب المعتزلة ثم جحده .

الأشـــاعرة

رأينا أن أول مسألة شغلت الفكر الإسلامى هى مسألة مرتكب الكبيرة ، وقد تطور الجدل فيها إلى البحث فى نوع مسئولية الإنسان عن أفعاله وعلتها فيما يعرف بمسألة القدر ، فظهرت نظرية الجبر التى تسلب الإنسان حريته واختياره فى أفعاله وبالتالى إعفائه كلية من المسئولية ، وظهر قول مضاد يذهب إلى القول باستقلال الإنسان وحريته واختياره وقدرته الكامنة على خلق أفعاله ، وبهذا تصح المسئولية الإنسانية ، ويصح الثواب والعقاب ، وكان فى كلا الرأيين ، تفريط ، وإفراط .

فإذا كان الرأى الأول يضحى بإرادة الإنسان فى سبيل عظمة الخالق وتفرده بالخلق والاختيار ، إلا أنه قد جعل من التكليف وإرسال الرسل وسنن الله فى خلقه ، مهزلة وعبثاً يجل مقام الألوهية عنها .

وإذا كان الرأى الثانى قد ضحى بالمشيئة والإرادة الإلهية فى سبيل إثبات العدل والحكمة لله إلا أنه قد شكك فى عموم القدرة والتفرد بالخلق لله سبحانه وتعالى .

فكلا الفريقين ، نظر إلى المشكلة بعين عوراء ، فلاحظ أمراً وغابت عليه أمور ، وما ذاك إلا تأكيد لفشل العقل وحيرته عندما يتناول أمراً فوق طاقته .

ثم اتسعت دائرة الجدل لتشمل أمور الخالق وصفاته . فمن يقول بالتشبيه والتجسيم ، أخذاً بظواهر الآيات دون ردها إلى المبدأ الأساسى وهو (ليس كمثله شئ) . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٩)

ومن يعارض هذا القول ، فيغرق فى التأويل إلى حد التعطيل لصفات كثيرة وصف الله نفسه بها ، مثل المعتزلة الذين ذهبوا إلى حد إنكار صفة السمع والبصر والكلام عن الله تعالى .

---

(٥٩) الشورى/١١ .

وهكذا دار الخلاف بين الواقفين عند الظاهر ، والمغالين فى التأويل ، إلى حد الصراع الدامى فيما يعرف بمشكلة خلق القرآن التى تعتبر أنموذجاً للنتائج التى تترتب على تشابك خيوط الملة بالنحلة وخلط كلام الوحى بكلام البشر ، ومن وسط هذا الصراع الحاد ظهرت الأشاعرة كحل وسط يجمع بين طرفين متباعدين هدهما الصراع .

ولكن هل كان حلاً موفقاً عاد بالمسلمين إلى الوحدة والتوحيد الصحيح ؟ هذا ما نشك فيه كثيراً لأنه حل قائم على النحلة والنحلة بطبيعتها لا تصلح أن تكون سبباً للوحدة والتوحيد .

وتنسب هذه الفرقة لمؤسسها الشيخ أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ كان تلميذاً لأبى على الجبائى من شيوخ المعتزلة إلا أنه انفصل عنه بسبب نقاش شبيه بذلك النقاش الذى من أجله اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ، وكون مدرسة مستقلة يعارض بها المعتزلة ، وسار على نهجه تلاميذه من بعده ، وكان جهدهم موجهاً إلى شرح آرائه ونظرياته والدعوة إليها ، دون إضافات تذكر للأسس التى وضعها الأشعرى .

ومذهب الأشاعرة هو الأكثر ذيوعاً فى العالم الإسلامي منذ القرن السادس الهجرى وحتى الآن .

تعاليمه :

ونكتفى هنا بعرض أهم آراء الأشعرى ، لأنها هى المبادى التى لم يخرج عنها أتباعه كثيراً كما قلت إلا بالشرح والتأييد والجدل بها وعليها .

أولاً : مشكلة الصفات :

يقول الشهرستانى : (قال أبو الحسن : البارى تعالى عالم بعلم قادر بقدرة حى بحياة ، مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى ؛ لا يقال هى هو ولا هى غيره ؛ ولا لا هو ولا غيره)[٦٠] .

ولكن كيف يمكن أن تكون الصفات لا هى هو ، ولا هى غيره ، إن فى هذا القول ما يشعر بالتناقض ، فإذا كانت الصفات هى الذات ، فلا تكون

---

(٦٠) الملل والنحل ٧٨/١ .

غيرها ، وإذا كانت غيرها ، فلا تكون هى ، أما أن تكون لا هى هو ، ولا هى غيره ، فهذا قول إما متناقض ، وإما غامض يدق على الذهن العادى بل وغير العادى فهمه .

ثانياً : مشكلة الأفعال الاختيارية :

ويروى الشهرستانى عن الأشعرى أنه يقول : « لا تأثير للقدرة الحادثة فى الأحداث ، غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة أو تحتها أو معها الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له ، ويسمى الفعل كسباً فيكون خلقاً من الله تعالى إبداعاً وإحداثاً ، وكسباً من العبد حصولاً تحت قدرته »[٦١] .

وهذا كلام فى غموض سابقه ، فالأشعرى حين يجعل من قدرة الله أداة لتنفيذ الإرادة الإنسانية ، فهو بين أمرين :

– إما أنه يسلم بأن الإرادة الإنسانية مخلوقة لله تعالى لعموم الخلق والقدرة ويكون وجودها مثل عدمها ، وهذا هو عين الجبر .

– أو أنه يسلم بأنها من خلق الإنسان ، فيكون قد وقع فى ملك الله ما ليس من خلقه ، وهو ما لا يقول به .

ولا يفهم من ملاحظتنا هذه اثبات رأى معين فى تلك المشكلة وإنما أردت التنبيه إلى أن ما يقام بالجدل يمكن هدمه بالجدل فى الأمور التى لا تصلح للجدل ولا التكييف العقلى كالغيبات .

ثالثاً : مشكلة الرؤية :

علمنا أن المعتزلة ينكرون رؤية الله ، أما الأشعرى فقد وافق السلف فى إمكان الرؤية إلا أن السلف فوضوا إلى الله كيفية تلك الرؤية ، أما الأشعرى فقد فسرها تفسيراً عقلياً فقال : (إن كل موجود يصح أن يرى ، فإن المصحح للرؤية إنما هو الوجود)[٦٢] .

وهذا تعليل فاسد ، لأنه إذا كان المقصود الرؤية البصرية ، وهو ما يقرره الأشعرى فإن كثيراً من الموجودات لا ترى ، فالعقل موجود ولا يرى ، والروح

---

(٦١) السابق ١/٨٨ – ٨٩ .
(٦٢) السابق : ١/٩١ .

موجودة ولا ترى ، والألم موجود ولا يرى ، واللذة موجودة ولا ترى ، فكل المعانى موجودة ولكنها لا ترى .

ولكن إذا ذهبنا للتعرف على ما يعنيه الأشعرى بالرؤية ، وجدناه يفسرها تفسيراً يقترب كثيراً من رأى المعتزلة حيث يقول : (ولا يجوز أن تتعلق به الرؤية على جهة ، ومكان وصورة ، ومقابلة واتصال شعاع . أو على سبيل الانطباع فإن كل ذلك مستحيل) .

ولما كانت الرؤية البصرية ، هى ما اجتمعت فيها كل هذه الشروط وانتفاؤها يخرج الرؤية عن أن تكون بصرية ، إذن فالرؤية التى يعنيها الأشعرى رؤية عقلية ، أو نوع من العلم ، وهذا ما يقوله المعتزلة .

رابعاً : مرتكب الكبيرة :

يقول الأشعرى : (الإيمان هو التصديق بالجنان ، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه ، فمن صدق بالقلب أى أقر بوحدانية الله تعالى واعترف برسله تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب ، صح إيمانه ، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شئ من ذلك . وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه إلى الله تعالى)[٦٣] .

وقوله هذا قريب من قول المرجئة كما سبق قوله .

خامساً : الوعد والوعيد :

يقول : (لا يجب على الله كما قالت المعتزلة اثابة المطيع ، ولا عقاب العاصى ، وإنما يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا ، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً ، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف ، أو وضع الشئ فى غير موضعه ، وهو المالك المطلق)[٦٤] .

وهذا القول من الأشعرى لا يتفق وجلال الله سبحانه وتعالى ، ولا يليق التصريح به ، لأنه يمكن أن يثير هذا التساؤل : هل وضع الشئ فى موضعه هو إثابة المسئ وعقاب المحسن ؟!

---

(٦٣) السابق ٩٢/١ .
(٦٤) السابق ٩٣/١ .

تعالى الله عن عقولنا الناقصة أن تقنن أفعاله أو تكيفها . فقد أنزل فى القرآن وعده ووعيده ، ونحن نخشى وعيده ونرجو وعده ولا شأن لنا بغير هذا .

سادساً : التحسين والتقبيح :

قال : (الواجبات كلها سمعية والعقل لا يوجب شيئاً ولا يقتضى تحسيناً لا تقبيحاً ، فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب . قال الله تعالى : ولا يجب على الله شئ ما بالعقل ، لا الصلاح ولا الأصلح ولا اللطف)[٦٥] .

هذه هى أهم مبادئ الأشعرية وأصولها الكلامية .

وبعد ، فإننا نود أن نختم القول ، بالتنبيه على أن الفرق فى الإسلام كما عرضناها ، كانوا الثمرة المرة التى جناها المسلمون من وراء عدولهم عن النهج الصحيح ، كما أتى به الإسلام والتزمه السلف الصالح ومن تأسى بهم وسار على هديهم ، ذلك المنهج هو ، إسلام القلب والعقل لله ورسوله ، الذى لم يترك الدنيا حتى نزلت شهادة السماء بكمال الإسلام :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[٦٦]

فكان سلفنا الصالح يؤمنون بكماله ويوجهون كل نشاطهم لتحقيق هذا الكمال فى قولهم وعملهم ، والارتفاع بمستوى سلوكهم إلى مستوى كلمة الإسلام ، إلى أن انحرف المسلمون عن هذا المنهج القويم ، فأخضعوا الكلمة للعقل ، وأنزلوا الكلمة من عليائها وكالها إلى مستوى عقولهم الناقصة . فجعلوا الكلمة كلاماً ، فافترقوا وتنابزوا وضعف شأنهم وقل وزنهم بين الأمم .

---

(٦٥) السابق ٩٣/١ .
(٦٦) المائدة : ٣ .

وصدق الله العظيم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[67]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[68]

وبعد ..

فإننى أرجو أن يكون ما قدمته من مقدمات ومقارنات ونتائج ، قد انتهى إلى توضيح ما قصدت إليه من التمييز بين الملة والنحلة فى الأديان الثلاثة ، والذى يمكن إجمال القول فيه بالتأكيد على ذلك الفرق الجوهري بين وضع الملة والنحلة فى الإسلام ، وبين وضعهما فى اليهودية والمسيحية .

فإنه بينما قد أصبح من المسلم به اختلاط كلام البشر بكلام الله فى التراث الديني لليهودية والمسيحية بشكل يستحيل معه تمييز الملة من النحلة فيه ، إلّا بالاعتماد على معيار خارج هذا التراث ، يمكن به فقط الترجيح وليس القطع فى هذا التمييز ، وإن كان يمكن اعتماداً على هذا المعيار وعلى النظر الموضوعي فى هذا التراث نفسه ، الجزم بتحريفه وتبديله وتغييره عن وضعه الأصلي ، وأن النحلة أو الآراء طمست وجه الملة أو كلمة الوحي فيه .

نجد على العكس من ذلك تمييزاً وتميزاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض بين الملة والنحلة ، أو كلمة الوحي وكلمة البشر في الإسلام ، فلم يحدث فى لحظة ما ، منذ نزول الوحي وحتى الآن ، أن اختلط على المسلمين ، لا في أفهامهم ولا في لسانهم ولا فى ذاكرتهم ولا في كتاباتهم ، التمييز بين القرآن الذى يمثل وحده عندهم كلام الله كما نزل به الوحي ، وبين كلام غيره من البشر ، وظل القرآن منذ نزل لم يختلط به رواية ودراية أو حفظاً وكتابة شيئ من كلام البشر ، الذى

---

(٦٧) الرعد : ١١ .
(٦٨) الأنعام : ١٥٩ .

مهما بلغ قائله لا يعدو عند علماء المسلمين وعامتهم أن يكون قولاً يحتمل الصواب والخطأ والقبول والرد ، وظلت على الدوام آراء الفرق الإسلامية ومذاهبها ومناهجها في فهم النصوص وتأويلها ، في نظر المسلمين لا تخرج عن كونها نحل ودعاوى تحتمل الصواب والخطأ والقبول والرد ، وتخضع في نقدها وتقويمها لكلمة الوحي التي لا يمثلها بيقين عند كل أحد من المسلمين إلا القرآن الكريم .

ومن جهة أخرى ، فإنه بينما كان في اختلاط الملة بالنحلة وكلمة الله بكلمة البشر في الديانة اليهودية والمسيحية الدليل والمسوغ للحكم عليهما بالتحريف والتبديل واختلاف نهايتهما عن بدايتهما ، فإن النحلة في الإسلام ، وإن غشت عقول بعض المسلمين في فهم الملة أو الدين كما نزل به الوحي ، إلّا أن كتابه المقدس ظل محفوظاً معصوماً من التبديل والتحريف ، وظلت الملة فيه مميزة ومتميزة في وضوح لا لبس فيه عن النحلة ، تلك النحلة التي لم تكتسب يوماً واحداً ، عصمة الوحي وقداسته ، على خلاف ما اكتسبته النحلة من مكانة وقداسة في اليهودية والمسيحية ، وظل القرآن الكريم معياراً فوقياً متفرداً بالقوامة في نقد ما عداه من التراث الديني والثقافي والأخلاقي للمسلمين ، وتقويم هذا التراث الذي يعتمد في صحته وقبوله على تزكية القرآن ، أو يلقى مصيره المحتوم من الإهمال والنسيان . وكان في هذا التمييز والتميز الدليل والمسوغ للحكم بأن الإسلام كدين سماوي ، ظل محفوظاً من التبديل والتحريف والتغيير كيوم نزل ، وأنه يتفرد عن الأديان الأخرى بكتابه الذي لم تمسه يد التحريف وتوفرت له كل عوامل الحفظ في الذاكرة والكتابة واللسان ، وظل باقياً كمعيار قائم وشاهد دائم على استقامة المسلمين وانحرافهم ، ومتفرداً بالقوامة والهيمنة على غيره من الكتب والأديان والمعتقدات والمذاهب ، أو على الأفكار والأقوال والأعمال ، وسيبقى للعلماء وغيرهم معياراً يميزون به بين الملة والنحلة وكلام الله وكلام البشر فى كل حين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين الذى هدانا بفضله إلى الإسلام .

المراجـــع

- القرآن الكريم .
- الصحاح .
- الكتاب المقدس .
- الجانب الإلهى فى التفكير الإسلامى ـــ دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- المسيحية . نشأتها وتطورها ـــ المكتبة العصرية ، ترجمة عبد الحليم محمود .
- الملل والنحل ـــ مكتبة الأنجلو العربية ، القاهرة ، ط ١٩٥٦/٢ ـــ تخريج محمد فتح الله بدران .
- مقارنة الأديان . اليهودية ـــ مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط ١٩٧٤/٤ ، أحمد شلبى .
- قصص الأنبياء ـــ مؤسسة الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، عبد الوهاب النجار .
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـــ مكتبة المثنى ، بغداد .
- الملل والنحل للشهرستانى .
- رسالة فى اللاهوت والسياسة ـــ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ترجمة حسن حنفى .
- آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .
- سياسة الاستعمار والصهيونية ـــ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، حسن صبرى الخولى .
- المسيحية . نشأتها وتطورها ـــ المكتبة العصرية ، بيروت ، الدكتور شارل جنيير ، ترجمة عبد الحليم محمود .

- إنجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين ــ دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٣ ، تحقيق سيف الله أحمد فاضل .
- جامع الأصول فى أحاديث الرسول لابن الأثير ــ دار البيان ، بيروت ، ١٩٧٢ ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوطى .
- سير ابن هشام والمدخل إلى القرآن ــ دار القلم ، الكويت ، ١٩٧١ ، محمد عبد الله دراز .
- دراسات فى السنة النبوية الشريفة ــ هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، صديق عبد العظيم .
- سيرة سيد الأنام محمد لابن هشام ــ القاهرة ، ١٣٣٦ هـ .
- تاريخ الإسلام السياسى ــ القاهرة ، ١٩٣٥ ، الدكتور حسن إبراهيم حسن .
- الإسلام والحضارة العربية ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، محمد كرد على .
- التوراة والإنجيل والقرآن الكريم ــ دار الكندى ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- الفتنة الكبرى ــ طه حسين .
- السبتيون منهجا وغاية للمؤلف ــ دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٥ .
- الصديق أبو بكر ــ محمد حسين هيكل ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ .
- تاريخ الطبرى ــ مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٣٩ .
- زاد المعاد ــ دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ابن القيم الجوزى .

محتويات الكتاب